

أناشيد من الشرق

مختارات دينية وثنية

منشورات المطبعة الكاثوليكية - بيروت

منشورات المطبعة الكاثوليكية - بيروت

بعض التآليف الدينية :

مجموعة التراث الروحي

١. **اعترافات القديس اغوسطينوس**
نقلها الى العربية الخوري يوحنا الحلو

٢. **الغزالي : اخلاقيات**
جمعها وقدم لها جورج يونس

٣. **شارل ده فوكو ، كتابات روحية**
نقلها الى العربية الأب جرجس موراني

٤. **أناشيد من الشرق**
اختارها ونقلها الى العربية جورج يونس .

٥. **تاريخ نفس (القديسة تريزيا الطفل يسوع) .**
نقلها الى العربية الأب شكرالله نصّار

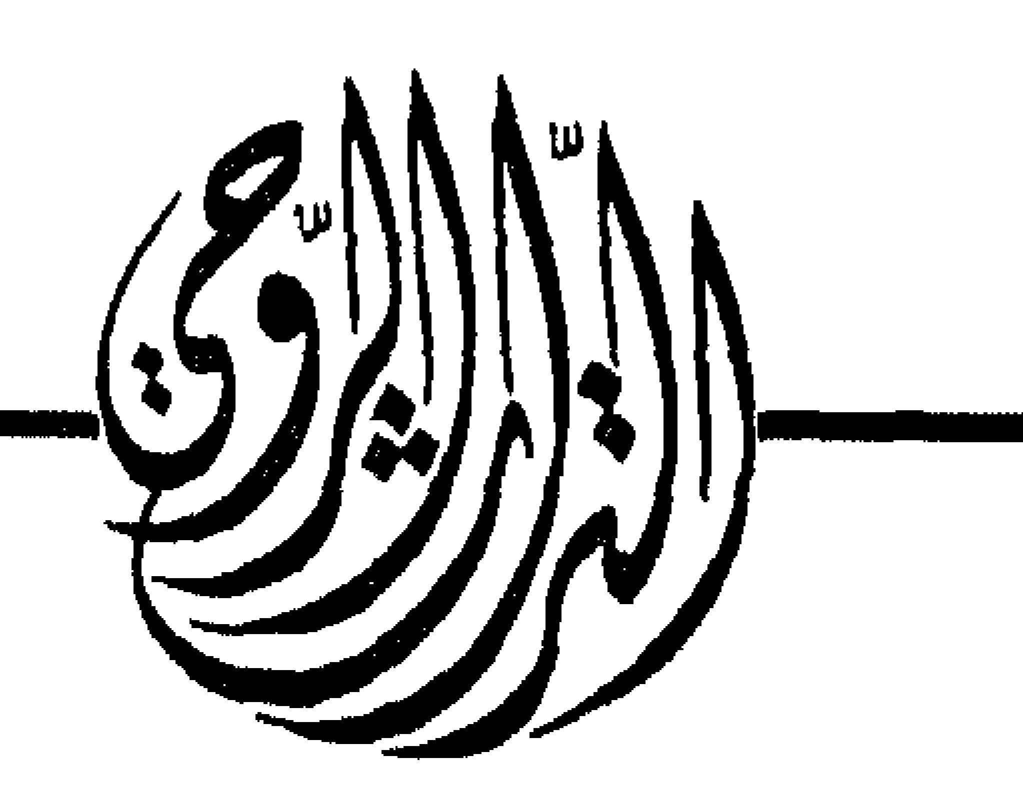
٦. **شرح رسالة القديس يوحنا الأولى للقديس اغوسطينوس**
نقلها الى العربية الخوري يوحنا الحلو

٧. **خواطر فيلسوف في الحياة الروحية**
تعريب الخوري يوحنا الحلو
(تحت الطبع)

التوزيع : المكتبة الشرقية - ساحة النجمة
ص.ب : ١٩٨٦ - بيروت ، لبنان

أناشيد من الشرق

مختارات دينية وثنية



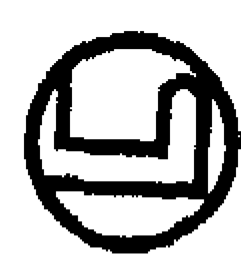
أناشيد من الشرق

مختارات دينية وثنية

عرّبها وقدّم لها وعلّق عليها

جورج يونس

مجاز في الفلسفة



المطبعة الكاثوليكية

مقـــدمـــة

بقلم الدكتور خليل الجر

ان الغرض الرئيسي من دراسة الاديان هو تحديد العناصر الاساسيَّة التي يقوم عليها كلّ دين منها والدور الذي تمثله في الحياة الروحيَّة للذين يعتنقونها .

وقد بدت الأديان خلال تاريخ البشريَّة الطويل بمظاهر شتى ، وتطوّرت خلال العصور تحت تأثير عوامل مختلفة منها ما يعود إلى تطوّر الفكر البشري ومنها ما يرجع إلى العناصر الغريبة التي تسرّبت إليها . ولكنها كلها تسعى إلى تحديد علاقات الكائن الإنساني العاجز عن بلوغ السّعادة في هذا العالم ، بعالم آخر ، يؤمّن له من اسبابها ما ضنّ به عليه العالم الذي يعيش فيه .

ومن يحاول دراسة الحضارات الشرقيَّة ، والديانات التي نشأت فيها ، وتحليلها تحليلاً دقيقاً يبدو له هذا التوق الإنساني إلى حياة أفضل ، كما يتبيَّن أن الهند والصين عرفتا نوعاً من التفكير ، قد يُحيّر لما فيه من غرابة اذا ما قارنّاه بحضاراتنا الغربيَّة ، ولكنه رفع شعوب هذين البلدين إلى حياة فكريَّة وروحيَّة قد تفوق كلّ ما وصلت إليه الحضارة اليونانية والحضارات المتحدّرة منها .

لقد بيَّن روديارد كبلنغ الفرق الشّاسع بين عقليَّة الشعوب الشرقيَّة وعقليَّة الشعوب الغربيَّة . ولعل أهمّ هذه الفروق يتعلّق بتحديد العلاقات بين الفرد والمجتمع ، أو بالأحرى ، بين الذات الفرديَّة والذات الكلّية .

ففي اوروبا وفي الاقطار التي سادتها إحدى الحضارتين اليونانيّة اللاتينيّة أو السّاميّة ، نرى أن تحرّر الفرد قد أصبح امرًا ناجزًا منذ عهد بعيد . أمّا في الشرق ، وخاصّة في الهند ، فما أن يحاول الفرد الانعتاق من ربقة المجتمع حتى يعود إلى السقوط فيها . ولئن كانت الشخصيّة الفرديّة هناك واقعاً راهناً ، فانّها واقع يدعو إلى الأسف ، لا يقبل بها الفرد ، وكلّ ما يصبو إليه هو أن يعود فيذوب في النفس الكليّة التي انفصل عنها .

•

لم يعبد الهنديّون ، بعد الهجرة الآريّة إلى بلادهم ، آلهة ذات شخصيّة مستقلّة ، إلا ردحاً قصيرًا من الزّمن ، ثم عاد فتسلّط عليهم وسواس اللاشخصيّة وفكرة الالوهيّة الشاملة لكلّ شيء والمتغلغلة في كلّ شيء . وما هذه الألوهيّة سوى « البرهما » ، أي الحقيقة المطلقة التي ينشدها الفيلسوف ولا يجدها إلاّ في القوانين التي تسيّر الكون ، وفي النظام القائم وراء التشوّش والاختلال الظاهرين ، وفي القوى التي تصدر عنها الظاهرات المختلفة ، من نور يشعّ عن الشمس ، وحرارة تصدر عنها ، وحياة تنمو وتتزايد ، ونغمات تتصاعد في الأثير ، وعقل في الإنسان يفكّر ؛ وبتعبير أعم ، في الطاقة الخلاقة التي نستطيع أن نسمّيها « طاقة إلهية » .

ولكن هل لهذه الطاقة ، التي ندرك مختلف مظاهرها حيثما اتّجهت انظارنا ، من وجود حقيقي ؟ كلا . ففي نظر المفكّر ، لا وجود إلا للفكر ؛ وعندما يزول هذا الفكر ، يتلاشى العالم بكلّيته . فالفكر إذن هو المبدأ الأسمى . تقول الاوبانيشاد « إن النفس ، أي « الأتمان » ، هي كلّ ما ينبغي علينا أن نتأمله ونصغي إليه . فمن تأمّل « الأتمان » وأصغى إليه فقد عرف العالم بأسره .

فالهنديّ الذي ينطوي على نفسه ويغوص في اعماق وجدانه يكتشف الله والحقيقة القصوى . لكنّ هذه الحقيقة تبدو له حقيرة ناقصة لأنّه أسير جسده وعبد شهواته . فلا خلاص للنفس إلاّ بالتحرّر من الفرديّة التي تقيّدها وتحطّ من قدرها . لكنّ هذا التحرّر ليس بمتناول الجميع ،

والسَّواد الأعظم من الناس تربطه بالعالم المحسوس وبمغرياته وبمظاهره الخلابة علاقات قويّة يعجز عن قطعها فيظلّ بعد الموت في هذا العالم ويولد في جسد آخر : « إن الذي يتذكّر البرهمن في ساعته الأخيرة ويمضي ينعتق من جسده ويتّحد بالجوهر الإلهي . لكنه إذا فكّر بجوهر آخر ، فاليه يعود ، لأنه صُنع من نوعه » .

لكنّ الأنفس الصالحة تنتقل من جسد إلى جسد أكمل منه ، حتى تصل آخر الأمر إلى الفناء في فكر اللانهاية ، وتصبح مع « برّهما » شيئاً واحداً : « إن السعادة القصوى تغمر من تعلّق قلبه بالله ، وتحرّر من جميع الشهوات وتنبذ جميع الرذائل ... فهذا يتّحد بالله ويحيا حياة إلهيّة ، ويصبح جوهره جوهر الله ، وعندئذ يصبح فيه جوهر جميع الأشياء » .

وهكذا يفقد الفرد فرديّته الحاصلة عن اتحاده بالجسد ، ويحظى بالخلاص والسّعادة .

وفي هذا المذهب الهندي ، نجد نقطة الانطلاق لجميع اشكال التصوّف التي عرفها العالم فيما بعد .

•

لئن كانت البرهمانيّة كما عرضها أصحابها تستهوي نخبة مختارة من الناس ، فانّها تظلّ فوق متناول السَّواد الأعظم من البشر . فالعامّة تجد صعوبة في التعلّق بكائن لا شخصيّ وتفضّل آلهة شخصيّة تستطيع عبادتها وتمثيلها تمثيلاً حسّياً .

وقد بدا لأحد مفكّريّ الهند أن البرهمانيّة تظلّ عاجزة عن أن تؤمّن للانسان الخلاص الذي يتوق إليه ، وأن السعادة التي ينشدها بعيدة الأمد . وهي ، إلى ذلك ، تظلّ عاجزة عن تخفيف الآلام الملازمة للحياة الحاضرة . فراح يسعى وراء طريق تزيل هذه الآلام فعثر عليها في بنارس ، حيث هبط عليه الوحي تحت شجرة كان يستظلّ بفيئها . فسمّيت الشجرة « شجرة المعرفة » وسُمّي هو « بوذا » ، أي الملهَم .

يلاحظ بوذا أنّ الألم يحيط بالإنسان من كلّ صوب ، ولا مفرّ له منه . ولكنّ هذا الألم ليس سوى نتيجة حتميّة لتعلّق الإنسان بالأمور الزائلة . فاذا ما توصّلنا إلى القضاء على شهواتنا ، وعلى تعلّقنا بالأشياء المتغيّرة الزّائلة سهل علينا التخلّص من جميع آلامنا .

صحيح أن كلّ شيء يتغيّر ويزول ، لكن الوجدان هو الذي يتغيّر أكثر من كل ما سواه . لقد ظنّ البراهمة أنّهم يستطيعون تركيز وجدانهم على التأمّل بما هو إلهيّ ؛ لكن هذا الوجدان ينتقل دوماً من فكر إلى فكر ومن شعور إلى شعور ولا يستقرّ على حال . ونعتقد ان لنا نفساً تظلّ واحدة على الرغم من هذه التقلّبات الظاهرة ، لكن هذا الاعتقاد وهم . إنّه «مايا» : « إن الانسان الذي يعتبر حقيقة ذاته في جسده أقرب إلى الصواب من الذي يعتبر هذه الحقيقة في نفسه . إن للجسم بعض الاستمرار الظاهر ، أمّا ما نسمّيه روحاً ، أو وجداناً ، أو نفساً ، فانّه يروح ويجيء ، في تغيّر مستمرّ دائم . وكما ان القرد في الغاب يتعلّق بغصن ثم يتركه واثباً إلى غصن آخر ، كذلك ما نسمّيه روحاً أو وجداناً ، يجيء ويروح في تغيّر مستمرّ دائم » .

فالنفس لا وجود لها . ولا وجود حقيقةً إلاّ للانفعالات والذكريات والإدراكات . ولئن كان الاعتقاد بوجود النفس وهماً ، فما مصدر هـــذا الوهم ؟ ـــ مصدره من أنّ هذه الانفعالات والذكريات والحالات الوجدانيّة المختلفة توجد فينا معاً ، وتتطوّر جنباً إلى جنب ، مدة من الزّمن ، قصيرة أو طويلة ، فيتعلّق بعضها ببعض كما يتعلّق الأفراد الذين يعيشون في مجتمع واحد بعضهم ببعض . فما نسمّيه « الأنا » ليس إذن سوى مجموعة من العناصر التي جمعتها المصادفة ووحّدت بينها . ويكفي أن نعرف هذه الحقيقة لنصبح قادرين على تفكيك العرى التي تشد معاً أجزاء شخصيّتنا المختلفة ، وتحريرها ، وبالتّالي على القضاء على « الأنا » . وما البوذية إلا « طريقة » تمكّن الإنسان من بلوغ هذه الغاية ومن تحصيل السعادة بجهده الشخصيّ دونما أيّة حاجة إلى معونة آلهة أو كائنات سامية تسهل عليه عملاً لا يستطيع القيام به بذاته .

فالإنسان العاقل ، هو الذي فهم هذه الحقيقة ، وقضى على شهواته وقطع جميع علاقاته بالعالم المادّي وما فيه من خيرات ومغريات ، وعرف أنّ « الأنا » ليس إلا « مايا » كم عرف الأسباب التي تولّد هذا الوهم فقضى عليها وتخلّص من التقمّص . هكذا يتغلّب الإنسان على الصيرورة المولّدة لجميع الآلام ، ويبلغ السكينة التامّة ، أي « النرفانا » .

أما في الصين ، فقد ازدهرت جنباً الى جنب ، ديانات مختلفة ، منها ما يقوم على الاعتقاد بعدد لا يحصى من الأرواح المتجسّدة في أحد الحيوانات وعلى مجموعة من الطقوس الرّامية إلى تكريم هذه الأرواح . ومنها ما يرتكز على الأسرة ويقوم على عبادة الأجداد ، ومنها أخيرًا ديانة فلسفيّة هي ديانة « التاو » ، وهو السّبيل المؤدّي إلى الخير المحض وإلى النظام الكلّي . فالتاو يسيّر الطبيعة بأسرها ، ويبدو أثره واضحاً في السّماء حيث تظهره حركات الأفلاك والكواكب كما يمثّله على الأرض الامبراطور الذي منه يستمدّ سلطانه .

وقد وضّح فكرة التاو مفكّران ، أحدهما كنفوشيوس الذي توصل إلى سنّ قوانين خلقيّة لا تسمو فوق الضرورات الدنيويّة ، لكنّها توافق بصرامتها وبروحها العقليّة الصينيّة ، فرفعت واضعها إلى مصاف الآلهة ؛ ولاوتسو ، الذي تأمّل « التاو » فلم يجد له إلا تحديدًا سلبياً ، وخلص من تأمّله إلى صوفية تشبه صوفيّة المدرسة الاسكندرانيّة .

لكنّ البوذيّة انتشرت في الصين انتشارًا واسعاً ، ولم يرَ الصينيّون في هذه الديانات المختلفة تناقضاً فمارسوها معاً ، وأصبح الدين عندهم يبدو بمظاهر متعدّدة ويسيّر الحياة الصينيّة بأسرها .

لا يمكن أن تعطي هذه النظرة السّريعة إلى الديانات الشرقيّة فكرة واضحة عنها ، وقد تشوّه حقيقتها لما أغفلته من مظاهرها المختلفة ، ومن تطوّرها خلال العصور ، ومن تفاعلها مع بعض المعتقدات البدائية التي

حلّت محلّها ولم تقض عليها إلا بعد أن تمثّلت الشيء الكثير منها ، وبما لا ريب فيه أيضاً أن صداها في ذهن قارئ نشأ على نمط آخر من أنماط التفكير ، وتغذّى بروح العقلانيّة الاغريقيّة التي طبعت حضارتنا الغربيّة بطابعها الخاص ، وعاش أحداث عصرنا الحاضر الذي طغت فيه المادة على الروح ، وإرادة الحيـــاة على إرادة التخلّص من عبوديّة الحياة والجسد ، لا يتراجع كما تراجع في أذهان الذين اعتنقوا هذه الديانات ، وما زالوا يعتقدون بها .

غير أن فيها من العبر والحقائق الميتافيزيقية ما هو جدير بأن نتأمّله . وانّه لنقص كبير في أدبنا العربيّ أن يكون خالياً من نصوص تعرّفنا بنوع من التفكير يختلف عن تفكيرنا وبنظرة إلى العالم والحياة تختلف عـــن نظرتنا اليهما .

ومما لا ريب فيه أنّ مطالعة النصوص ذاتها يعطي القارئ عن هذه الديانات فكرة أصدق من الفكرة التي يعطيها عرض لها وتحليل لمحتواها . فالمطبعة الكاثوليكيّة ، إذ تقدم إلى القارئ العربي هذه المجموعة من النصوص الدينيّة الهنديّة والصينيّة تسدي له خدمة كبيرة وتسدّ فراغاً كبيرًا في معارفه وتغني المكتبة العربيّة بأثر نفيس .

وقد احسنت اختيار الاستاذ جورج يونس لنقل هذه النصوص إلى العربيّة ، لما يتحلّى به من ثقافة فلسفيّة واسعة مكّنته من استيعاب المعاني ، ومن سيطرة على زمام اللغة العربيّة ، سهّلت عليه تأديتها بأكثر ما يكون من الامانة والاخلاص .

خليل الجرّ

أجـزاء الكتاب

الجزء الأوّل : **البرهمانيّة**

الجزء الثّاني : **البوذيّة**

الجزء الثّالث : **الدّيانات الصّينيّة**

الجُزءُ الأوَّل

البــرَهــْمـانيَّــة

توضيح

البرهمانية ، كدين ، كل لا يتجزأ ؛ بيد أنها ، ككل عقيدة ومذهب ، تطورت متأثرة بتيارات داخليـــة وخارجية حورت في بعض الاحيان معطياتها الاصيلة . وهكذا عرفت البرهمانية ثلاث مراحل : الفيدية ، والبرهمانية ، والبرهمانية الهندوسية ، اتسمت كل واحدة منها بطابع مميز . غير ان وضع حد فاصل حقيقي ، على صعيد المضامين الجوهرية ، بين كل مرحلة واخرى ، امر مصطنع ومبتور ، اذ يتبين لكل مدقق ان المراحل الثلاث هذه متداخلة متشابكة فيما بينها تعيش افكار الواحدة منها في الأخريين .

ورغم ايماننا بما سبق فقد وجدنا لزاماً علينا الاشارة الى كل مرحلة على حدة وابراز طابعها المميز ، فقسمنا هذا الجزء الاول الى اربعة اقسام يضم الاول منها المرحلة الفيدية ، التي يعتقد المفكر ماكس ميللر انها بدأت حوالى عام ١٢٠٠ ق .م. بينما يرجعها العالم اولدنبرغ الى العام ١٥٠٠ ق.م.

ويضم القسم الثاني المرحلة البرهمانية التي بدأت بظهور التعليقات على الفيدا من براهمانا واوبانيشاد.

اما القسم الثالث فيضم المرحلة البرهمانية الهندوسية التي تأثرت بديانات جديدة ظهرت كالبوذية والجانية «Jaïnisme» ، وقد امتدت بين عامي ٥٠٠ و ١٠٠ ق. م.

اما القسم الرابع فحديث ويعود الى القرن السابع عشر الميلادي ، وهو يضم اناشيد للشاعر توكارام الذي تأثر الى حد بعيد بسلفه اكنات Eknâth الذي كان ، بسلوكه ، المثل الاعلى لكثير من المتصوفين الهنود امثال توكارام .

المعرّب

القسم الأول : المرحلة الفيدية L'époque védique

قبل المسيح بخمسة عشر قرناً تقريباً قدمت ، من جرود ايران العالية ، قبائل آرية اكتسحت ، بادئ ذي بدء ، حوض نهر الأندوس او السند ثم وادي نهر الغانج . واستقرت هذه القبائل المتحدرة من الجنس الابيض في هذا السهل الفسيح الذي يعتبر بحق مهد الحضارة والذي شهد نمو المجتمع الآري الاول وظهور ديانة جديدة عرفت بالفيدية نسبة الى كتبها المقدسة «الفيدا» ، وهي مجموعات كبيرة من الاناشيد المصعّدة الى الآلهة والى عناصر الطبيعة ، ومن الصيغ الطقسية والسحرية ، ومن القصائد التي تطل من بين ابياتها الملامح الاولى للتأمل الفلسفي .

وتعتبر الفيدية المرحلة الاولى من البرهمانية ومن ميزاتها :

١ ـــ ان آلهتها ، وهي كثيرة ، مزيج من قوى كونية وعناصر طبيعية وابطال حققوا انتصارات باهرة . وهذا يعني ان طبيعة هذه الآلهة ليست غريبة عن طبيعة البشر ، وان مفهومها للحياة قريب من مفهومهم ، وان عالمها السماوي صورة عن عالمهم الارضي . وقد نشأ عن هذا التقارب نوع من وحدة الحال ـــ اذا صح التعبير ـــ ونوع من الصلات الحميمة التي جمعت بين العابد والمعبود وقضت على التفاوت الذي يفترض ان يقوم بينهما .

٢ ـــ ان نظرتها الى الحياة اتسمت بتفاؤل متوثب يتغنى بالزخم الذي تضج به الحياة ويمجد تعطش القوة الى التوسع والسيطرة ويبرز الحاجة الكيانية العميقة الى الحركة والعمل .

٣ ـــ ان المظاهر الطقسية وما يرافقها من عبادة وسحر وخرافات ومن عادة تقديم ذبائح وقرابين سيطرت الى حد كبير . وقد ساعد على ذلك تحول الكاهن البرهمان الى ساحر يتمتع ، بنظر المؤمنين ، بسلطة وتأثير على الآلهة والعناصر الكونية والاشكال . وهكذا فرغ الدين من مضامينه الالهية الحقيقية وتحول من

ايمان عميق الى مظاهر خارجية ؛ ولم تعد الالوهية نقطة ارتكازه ، ولم يعد الاله سوى مجرد واسطة ، واصبحت ممارسة الشعائر الدينية السحرية الروتينية قيمة بحد ذاتها بل وحتى غاية . واحتكرت جماعة الكهان الجديدة معرفة الصيغ الدينية وطرق تقديم القرابين وغير ذلك من الطقوس فرسخت بذلك سلطتها المطلقة .

بيد ان هذا الواقع المجدب المتحجر ما لبث ، بفضل تيارات جديدة تغلغلت في البيئة الفيدية ، ان تبدل وتطور تحت تأثير افكار ما ورائية من نمط جديد .

لقد عجز دين الكهان هؤلاء ، بمعتقداته وخرافاته وطقوسه الجامدة وقوالبه وصيغه الرتيبة ، عن السيطرة على القوى الطبيعية والخارقة الطبيعة ، وعن المحافظة على هذا التعطش الآري الى النشاط والعمل والحركة ؛ واحس الانسان الفيدي ان جهده المبذول ضائع ، وان المجهول الذي كان يتهدده والذي تعهد الكهان له بترويضه وكشف اسراره ما زال يتربص به الدوائر ، فتبدلت اذ ذاك نظرته الى الحياة ، وتحول الوجود الفردي والاجتماعي بنظره من حافز على العمل ومن قيمة ذاتية صحيحة الى نوع من الضغط الخانق والكبت المظلم لم يعد بوسعه ان يتخلص منهما . وبدلاً من ان يصارع ويعمل ويجاهد استسلم واستكان . وقد خلقت خيبة الامل هذه ، التي اصيب بها الفيدي ، انساناً جديداً : هندوسياً صوفياً يسكر بالتأمل ويؤمن بلا فائدة العمل ويرفض الحياة بقوة واصرار .

وتجسدت هذه الخيبة ، لدى المفكرين المتحررين ، في نزعة فلسفية حركية ناشطة كانت تسعى باستمرار الى ايجاد حلول جديدة لمعضلات الحياة والموت . وما لبثت هذه النزعة ان تبلورت ، اكثر فاكثر ، في المرحلة الثانية : البرهمانية .

اقسام الفيدا

قلنا بان الفيدا مجموعات كبيرة من الاناشيد والصيغ والقصائد المقدسة ، وهي مكتوبة باللغة الفيدية القريبة من الايرانية ، وموزعة على اربعة كتب :

الاول، وهو اقدمها ويدعى «ريج — فيدا» او « فيدا المقاطع» «Rg-Véda» ويعتبر من اقدم المقطوعات الادبية التي عرفتها الانسانية . وقد اختلف العلماء

في تحديد تاريخ ظهوره فمنهم من ادعى بانه يعود الى عام ١٢٠٠ ق. م. بينما اعتبر آخرون انه يعود الى عام ١٥٠٠ ق.. م. .

وهذا الكتاب خلو من اي اشارة الى نظام العائلات الطبقي والى الافكار الرئيسية التي ستسيطر على الديانة فيما بعد. وهو يضم ١٠٢٨ نشيداً موزعة على عشر حلقات أو مندالا « Mandala » .

الثاني ويدعى « ياجور — فيدا » او « فيدا الصيغ او الطقوس القربانية » « Yajur-Véda » ولم تصلنا منه سوى اجزاء قليلة .

الثالث ويدعى « ساما — فيدا » او « فيدا الالحان » « Sâma-Véda » ويضم ١٥٠٠ مقطعاً مأخوذة ، كلها تقريباً ، من الكتاب الأول ولكنها مرتبة بطريقة خاصة تساعد على ترتيلها .

الرابع ويدعى « اتارفا — فيدا » او « فيدا الروائع » « Atharva-Véda » ويضم ٧٣١ نشيداً موزعة على ٢٠ كتاباً . ويتبين ، منذ الوهلة الاولى ، ان هذا الكتاب يمثل عقلية جديدة تختلف عن تلك التي طبعت الكتب الثلاثة السابقة ، فهو لم يتقيد ولم يلتزم تماماً بحرفية التعاليم المقدسة بل ادخل ، من خلال اناشيده ، مجموعة من المعتقدات والعادات الشعبية التي لم يكن لها اي اثر في الكتب الاولى . ولم يعد الكاهن ، الذي اصبح الآن يلقب بالبرهمان ، قابعاً في برجه العاجي ، بعيداً عن جمهور المؤمنين ، كما في السابق ، بل اصبح لزاماً عليه ان يتصل بالشعب وان يأخذ بعين الاعتبار حاجاته ووساوسه ومشكلاته . وهكذا تخلى الدين ، في هذا الكتاب الرابع ، عن مظهره الكهاني الخارجي الفخم واصبح دين المحاربين والحرفيين والمزارعين والنساء .

ويضم هذا الكتاب الرابع ، الى جانب مراسم الاحتفالات ونصوص الصلوات المعدة لطرد الشياطين ، والى جانب الكلام السحري والتعاويذ والطلاسم ، يضم اناشيد وصفية ضخمة تبرز من خلال مقاطعها نظرة قوية متماسكة عن العالم ، واخرى فلسفية تمهد نزعتها المتحررة الجريئة ، الطريق امام النظرات البرهمية المتحفزة .

الآلهة الفيدية

على رأس الهرم الذي تؤلفه الآلهة الفيدية يتربع اندرا Indra ، وهو بطل قومي حقق انتصارات خارقة اذ خلب لب النور وتسلح بالصاعقة فخلّص البقرات السماوية وقتل خصمه التنين الذي كان يحبس المياه .

وتأتي بعده آلهة المارو Les Marut التي تقطع الفضاء ، جيئة وذهاباً ، على مطايا سريعة ، والاسفين Les Açvin التي تتولى امر انبلاج الصبح ، والاله رودرا Rudra الذي يسكن الغابات والجبال ويتولى ، على الارض ، امر حكم الحيوانات. وسيتحول هذا الاله رودرا فيما بعد ، رويداً رويداً ، الى الاله سيفا Çiva ، الاله الراقص مهدم العالم ومبدعه .

اما الاله فيشنو Vishnu ، الذي ستعتبره البرهمانية فيما بعد احد آلهة الصف الاول، فقد قطع فضاء العالم بخطوات ثلاث . ويتولى الاله سافيتار « Savitar « المحرض » تحريك الطاقة الانسانية ، بينما يقوم الاله تفشتار « Tvashtar » بتولي اعمال الحدادة في المعامل السماوية والاله بوشان Pûshan بحراسة الطرقات والماشية .

اما اديتي Aditi فهي الالهة الام التي تمثل الارض والتي تتخذ السماء ، التي تمثل الاب، زوجاً لها . ويتولي كل من الفجر والشمس والاوشا Ushas وسوريا Sûrya تفجير رونق النهار وجلاله .

وتتخذ الالهة اغني Agni التي تمثل النار اشكالاً متعددة منها السوما Soma الذي هو شراب التضحية المسكر . هناك الى جانب هذه الآلهة إلهان آخران هما ميترا Mitra وفارونا Varuna .

بيد ان هذا الترتيب تبدل في نهاية المرحلة الفيدية فاحتل الاله براجاباتي « Prajapati » او فيسفا كارمان Viçvakarman ، سيد المخلوقات ومبدع العالم ، راس الهرم بدلاً من الاله اندرا .

ولكن لا بد من الاشارة الى ان هذه الآلهة الفيدية لا تتمتع بصفات محددة يختص بها إله دون غيره، بل نلاحظ ان صفات هذا الاله مثلاً تنتقل بسهولة الى إله آخر ، وان الالوهة غارقة ، كما قلنا ، في عناصر الطبيعة وقواها .

كما وان التسلسل في المراتب شبه مفقود بين الآلهة الفيدية ، فكل اله يمكن

ان يصبح موضوع عبادة موقتة . وقد تصل هذه العبادة الى اقصى الدرجات ، وبوسع كل واحد ايضاً ان يولد ، لدى العابد المؤمن ، النشوة الكبرى او الانخطاف.

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى يبدو ان لكل شيء الحق في ان ينتسب الى الالوهة . ان الفيدا لا تتضمن ، بشكل واضح ، نظرة حلولية ، ولكن العالم يبدو فيها قابلاً لان يظهر ، في جميع اشكاله ، بمظهر الالهي . وهكذا ترتفع الصلوات والادعية الى النظام الكوني والى النظام الطقسي والى وسائل العبادة والى الكلام المقدس وكأنها آلهة .

فالفيدا اذاً هي ، قبل كل شيء ، انعكاس لمذهب طبيعي بدائي اكثر مما هي تعبير عن معتقدات محددة او عن احساس ديني عميق . فلا وجود فيها لمشكلات خاصة بالحياة والموت ولا لنظريات عن مصير الارواح .

توزيع الاناشيد المعربة

لقد جرى اختيار الاناشيد المعربة على الشكل التالي :

١ — يضم القسم الأول الاناشيد الخاصة بالطبيعة والخرافات وهي عبارة عن ادعية يرفعها المؤمنون الى الآلهة والعناصر الكونية .

٢ — ويضم القسم الثاني الاناشيد الطقسية والسحرية وهي مجرد صيغ يستخدم فيها ، بشكل اولي ، الكلام والمصطلحات السحرية .

٣ — أما القسم الثالث فيضمّ الاناشيد ذات الطابع التأملي التي تحتوي ، بالقوة ، على مجمل فلسفة الهند التي ستتبلور فيما بعد .

المصادر

وتجدر الاشارة الى ان هذه الاناشيد الفيدية قد نقلت الى العربية عن ترجمة الاستاذ لويس رينو Louis Renou من كتابه :

La poésie religieuse de l'Inde antique. Coll. Mythes et Religions, 1942, P.U.F.

التي وردت في كتاب : *Littérature religieuse.* Librairie Armand Colin, 1949.

الذي نشر باشراف الاستاذين جوزف شين ورينه كروسيه Joseph Chaine et René Grousset

١ ـ انشودة الفجر[١]

ها قد اقبل النور
اجمل الاضواء ،
وبدا امامنا وهج الصباح ساطعاً قوياً .

ها الليل يتخلى للفجر عن سريره[٢]
بعد ان حث سافيتار[٣] الظلام على التواري .

لقد اقبل الفجر
بقرةً ناصعة البياض تلمع ،
يرافقها عجلها[٤] البراق ؛
وتراجع الليل امامها
متنازلاً لها عن مقره .

الفجر نصف اليوم والليل نصفه الثاني،
خالدان هما
والى اصل واحد ينتسبان ،
يتعقب الواحد منهما الآخر ويطمس آثاره .

---

(١) الفجر من اكثر الآلهة السماوية التي اتى على ذكرها الشعراء الفيديون وهو عنصر السماء المؤنث . وهناك ، في المجموعة الاولى من الفيدا ، اكثر من عشرين نشيداً للفجر .

(٢) كثيراً ما ينظر الى الليل والفجر كزوج وزوجة او كمظهرين لحقيقة الهية واحدة . ولكنهما يصوران في بعض المرات كعدوين يطرد احدهما الآخر .

(٣) سافيتار Savitar : الاله الذي ينظم تعاقب الليل والنهار .

(٤) عجل الفجر هو الشمس .

شقيقتان
طريقهما واحدة لا محدودة،
تسلكانها ، الواحدة تلو الأخرى ،
بهدي الآلهة وارشادها ، فلا تتصادمان ولا تتوقفان ،
لانهما منسقتان ومنظمتان تماماً،
شكلاهما مختلفان ولكن قلبيهما قلب واحد .

لقد اطل الفجر ساطعاً متألقاً
وفتح امامنا الأبواب ،
ونفخ الحركة في عالم الاحياء ،
وكشف لنا عن الثروات،
وايقظ جميع الكائنات :
انه الفجر ، الدليل الساطع على العطاء والسخاء .

لقد قام هذا الجوّاد السخي،
يحثّ النائم عارضاً على السعي ،
ويحضّ الآخر على التفتيش عن قوته او ماله ،
ويمكّن شحيحي النظر من روئية الاشياء البعيدة :
الفجر أيقظ جميع الكائنات .

تألقي واسطعي يا أم الآلهة ،
ايها الفجر السامي،
يا محيا آديتي[1] ،
يا رمز التضحية .

---

(١) آديتي Aditi : الارض الام زوجة السماء الاب .

أضفي المجد على صلاتنا،
اشرقي ودعينا نولد بين الناس،
انت التي تمتلكين جميع النعم والامتيازات .

ليتكرم ميترا[1]
وفارونا[2]
ولتتفضل آديتي
والنهر والارض والسماء
فيمنحوننا المكافأة السامية السعيدة،
المكافأة التي يُنعم بها الفجر
على كل من يقدم القرابين
وعلى كل من يشقى في القيام بالطقوس الدينية .

(Rg-Véda, 1, 113)

٢ ـ انشودة الشمس[3]

لك المجد يا عين ميترا وفارونا .
مجدّوا الاله،

(١) ميترا Mitra : احد الالهة السماوية .
(٢) فارونا Varuna : احد الألهة السماوية .
(٣) تمثل الشمس هنا عين الآلهة ونظرهم الذي ينير كل شيء ويتغلغل في كل شيء وهي تسهر على مصير البشر وتبعد عنهم كل خطر . وهي عنصر السماء المذكر يتبع الفجر رفيقته وزوجته . وكثيراً ما تشبه الشمس ، هذا الكائن الحي ، بنسر طائر او بحصان .

مجدوه لهذه الشريعة العظيمة
شريعة الخلق
واطلعوا عليها ابن السماء
المتحدر من لدن الآلهة
وانشروها
للراية المشرعة في البعيد
للشمس !

ليحرسني قولي الحقيقة هذا من كل خطر ما توالت السماء والارض والايام .

كل متحرك يخلد الى الراحة
ما عداه !

سيلان المياه لا ينقطع
ودوران الشمس لا يتوقف .

لا يستطيع اي زنديق ان يوقفك
وانت تدورين بعربتك التي تجرها الخيول المجنحة .

احد وجهيك من الظل
المشرِقُ وجهته ، والآخر من نور
به تشرقين ايتها الشمس .

بالضوء الذي به ترفسين الظلمات
بالشعاع الذي به توقظين العالم كله
ابعدي عنا
ايتها الشمس

كل قحط ، ومرض ، وحلم مزعج
وجنبينا
كل إعراض عن ممارسة الطقوس الدينية .

تسهرين
انت المتحركة
على مصير كل واحد منا
وتدورين
وفق نظامك الخاص
دون ان يستبد بك غضب .

نلتمس منك اليوم
ايتها الشمس
ان تتكرم الآلهة
فتهبنا القدرة .

. . . .

تطل تباشيرك
فتدب الحركة في جميع الكائنات ،
وتغيب انوارك اثناء الليالي
فيخلد الجميع الى الراحة .

أطلي ايتها الشمس
يا ذات الشعر الذهبي ،
أطلي

بحق طهارتنا
واشرقي
في يوم هو
بالنسبة لنا
افضل الايام .

دعي الحظ يغمرنا
في النهار ،
في البرد ،
في الحر ،
في الالتفاتة وفي الصفاء ،
وهبينا
ايتها الشمس
كنزك العجيب
كي يرافقنا الحظ
في الحل وفي الترحال .

(Rg-Véda, 10, 37)

٣ ـ الى فارونا[1]

ناظر العوالم العظيم انت
ترى كل ما يجري

---

(١) فارونا Varuna : عين السماء .

وكأنك قريب من كل شيء.

الآلهة مطلعة على كل شيء
تعرف من يظن انه يعمل في الخفاء .

فارونا الملك انت
تبصر الساكن والمتحرك
العادي والمختبئ والفار ،
وتعرف ما يتهامسه رجلان
لأنك ثالثهما .

هذه الارض ملك لك
وكذلك السماء العالية
ذات التخوم البعيدة .

احشاؤك المحيطان : الارضي والسماوي
ونجدك مع ذلك
مختبئاً في قطرة ماء .

من يجتاز تخوم السماء
الى الضفة الثانية
لا ينجو منك .

ايها الملك
من السماء تهبط جواسيسك
وعبر الارض تمتد عيونها الالف .
نظرك يحيط بكل شيء
وينفذ الى ما بين العالمين والى ما وراء تخومها .

طرفات عيون الناس تحصيها
وتتلاعب بالأشياء
فترميها
كما يرمي الزهرَ لاعب النرد .

(Atharva-Véda, 14, 16)

٤ ـ الى اندرا[١]

اعلموا ايها الناس ان اندرا احتل ، منذ ولادته ، المرتبة الاولى بين الآلهة ، وانه الحكيم الذي قاربت قدرته قدرة الآلهة ، وان العوالم ارتجفت من ثورته وعظمة فتوحاته .

وهو الذي ركّز الارض المترجّحة ، وامسك الجبال الثائرة ، وقاس اقصى ابعاد الفضاء ، ورسخ دعائم السماء .

وهو الذي قتل التنين فاجرى الانهر السبعة ، واستعاد الابقار من كهف فالا[٢] ، وولّد النار من احتكاك حجرين ، وغنم الغنائم في الحروب .

وهو الذي وهب الحركة كل شيء ، واقصى سلالة دازا[٣] واطاح بها ، واستولى على ممتلكات الكافر كما يستولي اللاعب المحظوظ على كل ما يملكه زميله المقامر .

---

(١) اندرا Indra : اله يحتل المرتبة الاولى بين الهة الفيدا ، وهو البطل القومي الذي حقّق انتصارات خارقة .

(٢) فالا Vala : شيطان سارق يخفي الابقار السماوية اي الامطار .

(٣) دازا Dasa : سلالة شيطانية عدوة لاندرا .

وهو الذي تساءلوا عنه قائلين : « اين هو ؟ »
وهو الذي قيل عنه : « انه غير موجود اطلاقاً . »
انه الاله الرهيب ، يقلل اموال الكافر كما يقلل النرد مال اللاعب .
آمنوا به ايها الناس ، انه اندرا .
هو الذي يشجع الضعيف والعليل والبرهمي البائس والمتوسل ،
وهو الذي يساعد من يديرون حجر الرحى ويعصرون شراب السوما[1] .
انه اندرا ، ذو الشفتين الجميلتين .
بأمره تأتمر الجياد والثيران والعربات
وهو خالق الشمس والفجر
ومجري المياه .
به يستعين الجيشان المتحاربان
وهذا الفريق وذاك
وبه يستغيث راكبو العربة الواحدة
كل بطريقته الخاصة .
بواسطته يتغلب الناس على اعدائهم
وبه يستنجد المتحاربون .
مقياس كل شيء هو
ونافخ الحركة في اللامتحرك هو .
لم يهادن مرتكبي الجريمة الكبرى
الذين لم يعوا مصيرهم
فرماهم بسهمه .
ولم يغفر للمتكبر عجرفته .

---

(١) السوما Soma : شراب يقدم اثناء الذبيحة .

وهو الذي قتل التنين دازا .
وهو الذي اكتشف ، في الخريف الاربعيني ، التنين سمبارا[1] الذي
كان مختبئاً في الجبال
وهو الذي قتل هذا الشيطان المضجع الواثق من قوته .
وهو الثور الجبار ذو الاعنة السبعة الذي حرّر الانهر السبعة واجراها .
وهو حامل الصاعقة الذي رمى الابليس روهينا[2] ارضاً وتسلق السماء .
انه اندرا
من تنحني امامه السماء والارض ، وترتجف امام عنجهيته الجبال اذ
تدرك انه شرب عصير السوما وانه يحمل صاعقة على ذراعيه
ويمسك اخرى بيده .
انت من يهب الطاهي والعاصر اسلابَ العدو الفظ ،
انت ، حقيقةً ، من انت
فهل نستطيع ، وقد غمرتنا بحبك ابداً ، ان نردد ، بلا خوف ، المديح
الذي تفرضه الطقوس الدينية .

(Rg-Véda, 11, 12)

٥ ـ الى اغني[3]

انت اقوى قوة عندما تشبع يا أغني
في نورك الغالي يُختصر المجد المنظور .

(١) سمبارا Çambara : اسم تنين صرعه اندرا .
(٢) روهينا Rauhina : الشيطان الاحمر ، ابن الفجر ، حاربه اندرا كي يفوز بالنور .
(٣) اغني Agni : اله النار .

جائزة النصر الكبرى انت
والغنى الضخم الذي يمتد من كل مكان .

فيك ، في فمك
يأكل جميع الخالدين
وجميع الآلهة المخلصة
الذبيحة المقدمة[1] .

بواسطتك يتذوق الفانون طعم شراب السوما[2] .

مضيئاً تولد يا اصل النبات[3] .

هذه الآلهة
تختصرها انت، وتوازيها قوة
انت يا اغني
يا إلهاً عريق النسب .

وعندما تنتشر قوتك
في هذين العالمين ،
في اطراف السماء والارض ،
قوتك الجبارة العظيمة ،
عندئذ تفوق هذه الآلهة وتتخطاها .

(Rg-Véda, 1, 12, 14, 15)

---

(١) لقد كان مقدمو الضحية يهرقون الشراب المقدم للالهة في النار خلال تقديم الذبيحة .

(٢) السوما Soma : شراب يقدم اثناء الذبيحة .

(٣) تندلع النار من الخشب بواسطة الاحتكاك ولذا يقولون ان النار تتولد من الشجر وبالتالي من جميع النباتات ، فهي اذاً نواة هذه النباتات .

٦ ـ الى السوما[1]

شربنا السوما فاصبحنا خالدين
وبلغنا النور ووجدنا الآلهة[2] .

ايها الخالد
ماذا يستطيع الحاد الفاني وخبثه بعد الآن معنا ؟

كن مخلّص نفوسنا ونحن نرتشفك ايها العصير
كن متسامحاً معنا كما يتسامح الاب مع ولده وكما يتسامح الصديق مع صديقه .
مُدّ في عمرنا ايها السوما الحكيم
انت الذي تُسمع صوتك في البعيد .

هذه الأشربة الممجدة مخلصتي ،
تلهب أعضائي وكأنها سياط حوذي .

احفظني يا شراب السوما من الخطوات العاثرة
وابعد عني الشر الذي يشل قواي .
أضرمني كالنار المتولدة من الاحتكاك .
اضفِ علينا انوارك وزدنا ثراءً .

عندما انتشي بعصيرك
اتصور اني اصبحت غنياً .

اقترب منا ليصيبنا الفلاح .

---

(١) سوما Soma : اسم شراب التقدمة وقد كان يعبد وكانه اله .
(٢) وذلك بفضل النشوة المقدسة .

نتوق ، وقلوبنا لا تعرف الوجل ، الى الاشتراك في رشف شرابك كما نود ان نقتسم الارث الذي يخلفه لنا الآباء .

ايها السوما الملك
اطل في امد حياتنا كما تطيل الشمس في عمر ايام الربيع !
اشفق علينا واعلم اننا خَدَمُكَ
الحيلة والدهاء يهددانا بالخطر
فلا تتركنا ، ايها الشراب ، فريسة للذة الطاغي ولهوه .
انت حارس اجسادنا ايها السوما ،
في كل عضو من اعضائنا اتخذت لك مكاناً .

ايها الاله
اذا خالفنا اوامرك اغفر لنا
كما يغفر الصديق لصديقه ،
اصفح عنا لسعادتنا .

هل استطيع يا سيد الجياد الحلس ،
مخافة ان يسيء الي شربك ،
ان اجعلك تتعلق بي كصديق جميل ؟

الى اندرا اضرع كي يمد في أجلنا
لنمتلك هذا السوما الكامن فينا .

تقهقر ايها الضنى
فقد فرّت الشرور وخافت القوى المظلمة
لان السوما صعد وانتشر فينا .
ها قد وصلنا الى حيث تمتد الحياة فتبلغ الخلود .

(Rg-Véda, 48, 3-11)

٧ ـ الى الارض[1]

كل شيء يدافع عن الارض ويؤيدهـــا : الحقيقة السامية ، القانون
الدقيق ، السر ، الحمية ، الصلاة والذبيحة .
ايتها الارض ، يا سيدة ما كان وما سيكون ، تكرمي وامنحينا مكاناً
في البعيد .
خلصينا من الازعاج الذي يحيق بنا وسط الناس .

للارض منحدراتها وسواحلها وسهلها الشاسع ، وعلى اديمها تنبت
الاعشاب ذات الفضائل الكثيرة .
تكرمي ايتها الارض وامتدي وازدهري لاجلنا !

المياه ملكك ايتها الارض ، وكذلك المحيطات والانهار .
على سطحك اكتسب الآلهة الخلود ، وعلى اديمك يحيا من يتنفس
ومن يتحرك ،
تكرمي وحددي لنا السوما .

المشارق الاربعة ملكك، على سطحك وُجد الغذاء وابتدعت الحراثة
وعلى اديمك يدب ، باساليب مختلفة ، كل ما يتنفس ويتحرك
تكرمي وحددي لنا الثيران والخصب .

على سطحك انتشر ، منذ غابر الازمان ، الاولون
وعلى سطحك تغلب الآلهة على الشياطين

---

(١) الارض هي القوة والسلام والمحرضة والمربية وفيها يجد البشر والآلهة نقطة ارتكازهم والطريق القويم وهي مولدة كل شيء وتحمل جميع الكنوز .

انتِ ، يا ملجأ الثيران والجياد والعصافير ،
تكرمي وامنحينا الحظ والنفوذ .

يا حاملة كل شيء
يا من تتلقين كل الخيرات
انت العمود الذي يدعم الحائط
انت الصدر المذهّب
توقفين ما يسير وتدعمين النار العالمية
اندرا ثورك[1]
تكرمي وأمنّي لنا الثروة .

ايتها الارض
لتكن مرتفعاتك وجبالك المكللة بالثلوج وغاباتك مضيافة لنا .
الارض الفسيحة التي يحرسها اندرا سمراء ، سوداء وحمراء ،
جميع الاشكال اشكالها ومع ذلك ثابتة هي لا تتغيّر .
فيها جعلت مقري
هي التي لا تنتهك لها حرمة ولا تقهر
ولم تصب باي جرح .

ضعينا ايتها الارض في وسطك وفي قلبك وفي جميع القوى المنبعثة من جسدك
وطهرينا .

الارض امي وانا ابنها

---

(١) اندرا Indra : الثور السماوي .

بارجانيا[1] ابي
لتفض علينا نعم ابينا .

الارض ام كل شيء،
ام النباتات
مسالمة ، مضيافة هي ،
انها الارض الشاسعة الثابتة التي يدعمها القانون الكوني .
هل نستطيع ان نجتازها دائماً ؟

مترامية الاطراف انت ، ايتها الارض ، ايها المأوى الشاسع ،
زلزالك لا حد له،
وتحركاتك لا منتاهية،
وجلبتك تفوق كل حد.
واندرا ، حارسك الذي لا يهن ، لا حد له .

دعينا نتألق وكأننا تحت اشعة الذهب المنعكسة ،
لا تدعي احداً يضمر لنا شرًا،
ضمخينا بهذه الرائحة التي تفوح منك والتي يتميّز بها جميع الناس :
الذكور منهم والاناث ،
هذه الرائحة نصيبهم ولذتهم ، انها رونق الفتاة،
من الجياد والحيوانات المتوحشة والفيلة والمحاربين تنبعث ،
ايتها الارض ، لا تدعي احداً منا يضمر شراً .

(Atharva-Véda, 12, 1)

(١) بارجانيا Parjanya : اله السحاب والمطر .

٨ ـ الواحد ، الكل ، المطلق

من غرس التضحية في قلب الانسان ؟
أي اله اوحد ؟
من وضع فيه الحقيقة واللاحقيقة ؟
من اين يأتيه الموت ؟
ومن اين يأتيه الخلود ؟
من بالملابس كساه ؟
ومن رتّب امد حياته ؟
من منحه القوة ؟
ومن نظّم السرعة لاجله ؟
من وهبه القدرة على جعل المياه تجري في كل مكان ، والنهار يتألق
والفجر يلتهب ؟
من ذا الذي منحه الغسق ووضع المني فيه وقال : « زودته بهذا
لينشر ذريته » ؟
من نفخ الحكمة فيه ومنحه ملكة الموسيقى والرقص ؟
بواسطة من كسا هذه الارض وتخطّى السماء وسيطر على هذه الجبال؟
ومن وهبه القدرة على القيام باعماله ؟
ومن جعله قادراً على اتباع تعاليم بارجانيا ، ومبادئ السوما الذي
يرى بعيداً ؟
ومن زوّده بالقدرة على التضحية والتمسك بالايمان ؟
بفضل من هبط الذكاء فيه واستقر ؟
لم يكن ، في ذاك الوقت كائن ولا كائن ،
ولم يكن فضاء وفلك خلفه ،

ما الذي كان يتحرك ؟
اين كان يتحرك ؟ وبحراسة من ؟
هل كانت هناك مياه عميقة ، مياه لا قرار لها ؟
لم يكن في ذاك الوقت ، موت او خلود
ولم يكن هناك ادنى دليل يميّز الليل من النهار .
كان الواحد[1] يتنفس من غير نفث ،
ويتحرك بذاته
ولم يكن هناك شيء بعده .
في البدء كانت الظلمات تغلّف الظلمات .
ولم تكن العين تبصر سوى موجة غامضة
وبلغ الواحد ، سجينُ الفراغ ، مرحلة الكائن فوُلد عندئذ بفضل قوة الحرارة[2] .
في البدء نمت الرغبة التي كانت نواة الفكر الاولى .
وبحث الحكماء في اعماقهم بتأمل وتبصر
فوجدوا لحمة الكائن في اللاكائن .
كان حبلهم القصير مشدوداً بشكل منحرف : اية جهة كانت العليا واية جهة كانت السفلى ؟
كان هناك من يحمل البذار
وكانت هناك فضائل :
كانت الطاقة الخلاقة[3] العفوية تحت والهبة[4] فوق

---

(١) الواحد : L'Un
(٢) الحرارة التي نتجت عن فعل الخلق .
(٣) الطاقة الخلاقة : L'Energie
(٤) الهبة : Le Don

من ذا الذي يعرف حقاً ؟
ومن ذا الذي يستطيع ان يعلن ذلك ها هنا ؟
من اين يتحدر هذا الخلق ومن اين يأتي ؟
الآلهة في بدء هذا العمل الخلاق : من يعرف من اين ينبعث هذا العمل الخلاق ؟
من اين ينبعث هذا الخلق ؟ هل صنع ام لم يُصنع ؟
ذاك الذي يسهر على هذا الخلق في اعالي السماء يعرف دون شك ذلك ام انه لا يعرف ؟

(Rg-Véda, 10, 129)

القسم الثاني : مرحلة البرهمانية والاوبانيشاد Upanishad

١ً — البرهمانية

عرفت هذه المرحلة بالبرهمانية نسبة الى البراهمانا « Brahmana » وهي شروح للفيدا وتعليقات نثرية عليها ، او دراسات تفسيرية لغوية تترجم صيغها ومقاطعها ، قام بصياغتها وتنسيقها وجمعها رجال الدين عارضين العقيدة الصحيحة عرضاً منظماً ، محاولين التوفيق بين النزعات المختلفة وساعين الى خنق الافكار التحررية الجريئة التي كانت تحمل بذور فلسفة مناهضة لهم وللتقاليد .

وتتميز هذه الدراسات اللاهوتية بانها موجهة ، بشكل خاص ، الى الكاهن البرهمان « brahmane » الذي يتولى وظيفة الكهانة التي انحصرت ، كما سبق وقلنا ، في طبقة من الناس احتكرتها وسعت الى استغلالها بشتى الوسائل والاساليب السحرية .

ويبدو ان انتشار الديانة الفيدية وتوزعها على مجموعات كبيرة من الناس ، تنتمي الى اعراق مختلفة ، وتمايز المعتقدات وتنوعها ، وحتى اختلافها من مجموعة الى اخرى ، كانت احد الاسباب التي حثّت رجال الدين هؤلاء على محاولة توحيد الروح الدينية والثقافية وعلى حملها على الذوبان في حقيقة صوفية واحدة . وقد كانت هذه البراهمانا ، بالنسبة للثقافة الهندوسية ، اول الغيث الادبي الغزير المقدس الذي سيمحض الهند بفلسفتها الدينية السامية .

تضم كل برهمانا فصلاً او « آرانياكا » « Aranyaka » وهو عبارة عن عرض لاهوتي وضع خصيصاً كي يكون موضع تأمل البرهمان في احضان الغابة الصامتة الموحشة .

وفي داخل كل « آرانياكا » اوبانيشاد هو عبارة عن مقطوعة من الشعر او

النثر تعتبر التعليم السري الحقيقي : انها « العقيدة السرية » وجوهر النظرة الدينية البرهمانية الاساسي .

وهناك ايضاً مجموعات اخرى من المقطوعات ، جمعت تحت اسم « فيدانغا » « Vedânga » ، وهي ملحقة بالفيدا وتضم « الكالبا — سوترا » « Kalpa-Sûtra » ودراسات عديدة عن القواعد وعلم الفلك .

ولا بد من الاشارة هنا الى انه يصعب علينا ان نقيم حدّاً فاصلاً حقيقياً بين مختلف المراحل التي مرت بها البرهمانية اذ يتبين لنا ، منذ الاناشيد الاولى مثلاً ، ان هناك تداخلاً وتجاذباً بين مختلف الاتجاهات والميول ، وان هناك تعايشاً بين عنصرين دون ان يصل هذا التعايش الى حد ذوبان احدهما في الآخر . فهناك اولاً العنصر الطقسي الجامد المتحجر الذي يسيطر ، بشكل خاص ، كما قلنا ، في كتب الفيدا وخاصة في اناشيد الطبيعة وفي الاناشيد السحرية والخرافية وفي كثير من مقاطع البرهمانا التي تعالج قضايا الذبيحة ونظام تكون الكون .

وهناك ثانياً العنصر الفلسفي المتحرك المتوثب الذي يظهر في عمل الفكر الذي يبحث ، دون انقطاع ، عن حلول جديدة لمعضلات الحياة والموت ، وفي تزايد سمو التأملات الصوفية وترفها . ويبلغ هذا العنصر الفلسفي اوجه في الاوبانيشاد التي تعتبر قمة التفكير الفلسفي الهندي .

ولكن بوسعنا رغم هذا التداخل والتشابك ، ان نتبين بعض الميزات التي تتسم بها هذه المرحلة البرهمانية :

١ — نزعة قوية متعنتة للمحافظة على القديم بالابقاء على الطقوس ، كركيزة للدين ، وطرق ممارستها وبزيادة فعاليتها . وقد ظهرت هذه النزعة لدى طبقة رجال الدين — وهي شكل من غريزة البقاء — وكانت غايتها الدفاع عن امتيازاتهم والابقاء على سلطانهم وحماية مصالحهم .

٢ — رمزية اولية ابتكرها الكهان ، بوحي من مصالحهم ، ثم ما لبثت ان تطورت فكانت السبب في ظهور النزعة النظرية التي ازدادت تعقيداً حتى توصلت الى فرض مفاهيمها على الدين نفسه .

٣ ــ نظرة وحدوية شاملة تجمع المادة والروح في حركة تفاعل دائم .

لقد كان من نتيجة دعوة الافكار الفلسفية الجديدة الى القضاء على تحجر الطقوس والشعائر الدينية والمظاهر الخارجية ، والى الاستغناء عن خدمات الكاهن المستغل ، والى الرجوع الى ايام الفيدية الاولى ــ عندما كان رب العائلة يقوم بنفسه بتقديم القرابين على مذبح العائلة دونما حاجة الى كاهن او برهمان ــ ، لقد كان من نتيجة ذلك ان استماتت الكهان ، بشتى الطرق ، في الدفاع عن مراكزهم وامتيازاتهم وحاولوا ، بالمداورة ، الوقوف في وجه انتشار هذا التيار المتحرر . ولكنهم ، بمبالغتهم في التأكيد على اهمية ممارسة الطقوس وعلى قيمة الشعائر الخارجية وتقنية القيام بها ، على حساب الحقيقة الدينية الاصيلة ، زودوا المجددين الثائرين بسلاح جديد آخر . لقد حول هؤلاء الكهان مثلاً الذبيحة من مجرد وسيلة للتأثير على الآلهة الى معبود جديد حل محل الاله ، والى شرط للنظام الكوني ، والى سبب من اسباب خلق العالم ، والى مبدأ كل شيء ؛ وبذلك قضت العبادة على روح الدين او بالاحرى امتصتها ، واصبح الدين مجرد طقوس وممارسة .

بيد ان رمزية الذبيحة فشلت ، هي ايضاً ، في اشباع النهم الفكري الذي كان يزداد نمواً ، وفي تطويق التيار المتحرر الذي كان يحاول تحطيم قيود المظاهر . وهكذا استمر المجددون يؤكدون ان المعرفة اسمى من الممارسة الآلية الرتيبة ، وان شرط فعالية الطقوس كامن في ايمان الفرد بها وفي طهره الروحي وصدقه ، وان المهم ليس ان نردد كلمات سحرية ونقوم بحركات روتينية بل ان نتعرف الى مدلولها العميق .

هذا التطور نتيجة ، كما قلنا ، لوضع سابق ؛ اما الجديد في هذه المرحلة فهو النظرة الوحدوية التي تكاد تكون قمة في التفكير الديني الهندي . وتقوم هذه النظرة على ركيزتين الاولى وتدعى البرهمان « brahman » والثانية وتدعى الاتمان « âtman » ، اما البرهمان فتعني المادة الاولى غير القابلة للتجزؤ التي هي في الوقت نفسه ارادة وعقل وحب . انها جوهر الاشياء والكائنات ، انها الكل ، انها المطلق ، انها الاله .

اما الاتمان فتعني الذات او « النفث الحياتي » .

وتتحد هاتان الحقيقتان ، رغم تباين اصليهما ، لتؤلفا الكائن : الكائن الكوني والكائن البشري ، وهكذا تنفي البرهمانية المذهب الثنائي .

كذلك هناك وحدة بين البرهمان الكوني والبرهمان الفردي ، واخرى بين الاتمان الكوني والاتمان الفردي، وهذا ناشئ عن ان اصل كل الكائنات والاشياء واحد ، وعن ان الانسان صورة عن الكون ، ولذا يكفي ، كي تعرف الكون ، ان تعرف نفسك .

وينتج عن ذلك ان العالم الحقيقي الوحيـــد الموجود هو العالم الداخلي الشخصي ، اما ظاهرات العالم المحسوس فاوهام وخداع . وقد ولد من لا واقعية الاشياء الخارجية هذه ، ومن تغيرها ، مثل اعلى جديد هو الامل في حيـــاة خالدة في احضان المطلق .

والايمان بحياة خالدة في احضان المطلق تعني الايمان بوجود حياة ثانية وبخلود النفس البشرية . ولكن هل تبقى هذه النفس ، بعد ان عاد الجسد الى مادته الاساسية ــ الى البرهمان ــ هل تبقى دون ركيزة مادية ؟ وهل الحياة الثانية هذه خالدة بشكل مطلق ام نسبي؟

الاعتقاد السائد ان هذه الحياة الثانية فانية هي ايضاً ، وان السبيل الى التخلص من الموت الثاني هو التوصل الى الوجود خارج حدود الزمان وابعاده ، ولا يتم ذلك الاّ لمن يقوم بجميع الشعائر الدينية بدقة واخلاص ، ويؤمن ايماناً حقيقياً ، ويقول الحق ويفهم البرهمان والاتمان .

والكلام عن حياة ثانية فانية يقود الى الخوض في نظرية التقمص. والبرهمانية تؤمن بالتقمص وتعتقد ان روح الميت المقيمة في المقر الالهي تهبط الى الارض كي تكمل اتمام واجباتها الدينية بغية التحرر نهائياً من الموت . ولكن هذا لا يعني ان مصير جميع الارواح واحد : ان اختلاف مصائرها راجع الى اختلاف تصرفات اصحابها في حياتهم السابقة ، فاذا كان الواحد منهم صالحاً غمرت النعم روحه المتقمصة ، واذا كان سيئاً حرمت روحه خيرات الطبيعة ، وهكذا يحدد السلوك

الماضي السلوك الحالي كما يحدد الحالي القادم . اما السبيل الحقيقي الوحيد للخلاص من سلسلة الولادات اللامتناهية هذه فهو المعرفة ، والمعرفة لا تفترض الادراك فقط بل هي ، في الحقيقة ، الاتحاد مع الموضوع المعروف . وهـذا يتطلب تركيزاً فكرياً قوياً .

الآلهة البرهمانية

آلهة البرهمانية هي آلهة الفيدية نفسها ، اما التسلسل في المراتب فمختلف كما سبق واشرنا في نهاية الحديث عن الآلهة الفيدية ، كما ان الاله براجاباتي قد اصبح ، في نظر البرهمانية ، سيد الآلهة والمخلوقات ومبدع العالم .

المصادر

نقلت هذه النصوص عن ترجمة الاستاذ ب. اولترامار P. Oltramare من كتابه : *Histoire des idées théosophiques dans l'Inde.* الجزء الاول—باريس—١٩٠٦ . Musée Guinet ، وقد وردت في كتاب : *Littérature Religieuse.* Librairie A. Colin, 1949. الذي نشر باشراف الاستاذين جوزف شين ورينيه كروسيه .

١ ـ التضحية تطيل الحياة[1]

ما يصبّه مقرّب الذبائح في النار يسكبه في الآلهة
وبذا تدوم الآلهة .
وما يمسحه من الملعقة يسكبه في ارواح الموتى وفي النباتات
وبذا تدوم ارواح الموتى والنباتات .
وما يأكله بعد التقدمة يسكبه قرباناً في البشر
وبذا يبقى البشر .
المخلوقات التي لم يُسمح لها بتذوّق القرابين الحقيقية مرذولة ،
اما الكائنات غير المرذولة فانه يقدم لها ، في بداية التقدمة ، قسماً
من الذبيحة ،
وهكذا تشترك الحيوانات في التقدمة
لانها تأتي في المرتبة الثانية بعد البشر .

(Çatapatha Brâhmana, 2, 3, 1, 19 et suiv.)

---

(١) براجاباتي Prajâpati هو سيد المخلوقات والاله الاوحد وتجسيد الحياة المنتشرة في الطبيعة . وهذا السيد يشعر ، بعد ان يخلق الكائنات ، انه تعب مرهق ، ومن هنا تشبيه جسمه السماوي بالسنة . وتقوم الآلهة بتقديم القرابين للاله الاوحد كي يستعيد نشاطه ويشفى . وللناس ، وهم يقومون بالمراسم نفسها والطقوس نفسها التي قامت بها الآلهة وهي تقدم قرابينها لسيد المخلوقات ، للناس القدرة نفسها التي للآلهة على شفاء السيد .

٢ ـ العمل والمعرفة[1]

هناك طريقتان ليصبح الواحد خالداً : العمل والمعرفة
ولكن مذبح النار[2] هو المعرفة والعمل .
من يدرك هذا ويقوم بهذا العمل يعود ، عندما يموت ، الى الحياة
وبعودته الى الحياة يعود الى الحياة الخالدة
والافانه يعود ثانية الى الحياة عندما يموت
ويصبح ، الى ما لا نهاية له ، طعاماً للموت .

(Çatapatha Brâhmana, 10, 4, 3, 9 et suiv.)

٣ ـ الخالق والخلق[3]

قال براجاباتي[4] لبوروشا نارايانا[5] : اعلم اني وضعت جميع العوالم في ذاتي ووضعت ذاتي في جميع العوالم . ووضعت جميع الآلهة في ذاتي

(١) العمل لا يكفي وحده لكي يصبح الانسان خالداً ، يجب ان تضاف الى العمل معرفة قيمته ومداه وحقيقته . والطقس لا يمكن ان يكون ميكانيكياً ، والحركة ، لوحدها ، لا تهب الحياة : الفكر هو الذي يعطيها معنى ويسمح لها بان تبعد عن طريقها الموت .

(٢) مذبح النار هو التقدمة التي هي مصدر صوفي للطاقة الكونية .

(٣) الكائنات وخالقها من طبيعة واحدة ، والكل يستطيع ان يصبح خالداً لانه خالد في جوهره . ان ادراك هذه الحقيقة العميقة يكفي لكي ننتصر على الموت .

(٤) براجاباتي Prajâpati : احد اسماء الاله خالق العالم .

(٥) بوروشا نارايانا Purusha Nârâyana : ابن الانسان الاول ، اول مولود عرفه العالم .

ووضعت ذاتي في جميع الآلهة . ووضعت جميع كتب الفيدا المقدسة وجميع نفثات الحياة في ذاتي ووضعت ذاتي في جميع كتب الفيدا وفي نفثات الحياة ، ذلك ان العوالم والآلهة وكتب الفيدا والبرانا[1] خالدة ، في الحقيقة ، لا تفنى . من يعرف ذلك ينتقل من حالة الفناء الى حالة الخلود وينتصر على الموت الثاني ويبلغ ذروة الحياة .

(Çatapatha Brâhmana, 12, 3, 4, 11).

٤ ـ الزهد[2]

عندما خلق براجاباتي الكائنات البشرية سيطر عليه الموت المفجع . وعندها قام ، وخلال الف سنة ، باماتات وتقشفات ، باذلاً جهده كي يبقى متقدماً على الملعون[3] ومخلّفاً اياه وراءه . وفي السنة الالف تطهّر كلياً ، وكان جسده هو الملعون الذي طهّره . ولكن من هو الانسان ؟ وكيف يستطيع ان يأمل في حياة تمتد الف سنة ؟ الحقيقة ان المعرفة تؤمن لصاحبها حياة تستمر الف عام . ولذا نجد ان الذي يدرك ذلك ينصرف ، في جميع الحالات ، الى الاماتات . والحقيقة ان الذي يمارس الاماتات ـ ابتداءً بالعفة ـ عندما يدرك ذلك ، يشترك كل جزء من كيانه في العالم السماوي .

(Çatapatha Brâhmana, 10, 4, 4, 4).

---

(١) برانا : Prâna : النفثات الحية .

(٢) الزهد كالمعرفة وسيلة للوصول الى الخلود . لقد كان على سيد الكائنات ان يصارع الموت بعد ان انهكته عملية خلق هذه الكائنات. لقد طهّر جسده بواسطة التقشف وهكذا تحكم بالبشر .

(٣) الملعون : Le Méchant : اله الموت ياما .

٢ً — الأوبانيشاد Les Upanishad

قلنا ، في سياق الحديث عن المرحلة البرهمانية ، ان كل برهمانا تضم فصلاً او « آرانياكا » هو عبارة عن عرض لاهوتي وضع خصيصاً للكاهن البرهمان كي ينصرف الى التأمل فيه ، بعيداً عن العالم ، في احضان صمت الغابة المطبق .

اما الاوبانيشاد — التي وردت تارة شعراً وطوراً نثراً، او شعراً ونثراً معاً — فجزء من هذا « الآرانياكا » ، وهي الموضوع الاساسي الحقيقي لهذا التأمل الذي اشرنا اليه ، وتحتوي على الكشف عن العلم السري .

والفرق بين البرهمانا والاوبانيشاد ان الاولى لم تبرز بوضوح النزعة التحررية المتوثبة ، رغم ان هذه النزعة كانت الحافز على صياغتها وتنسيقها ، في حين اتت الاوبانيشاد كاصدق تعبير عن هذا الفكر الجريء الذي بدأ يتململ حتى قبل المرحلة البرهمانية . واغلب الظن ان هذه المقاطع قد اعدت في اوساط مناهضة للتقاليد المتحجرة الجوفاء فاصبحت ، مع الوقت ، كتاب الناسك وقاموس المفكر المتحرر من اي التزام طقسي ومرجع اولئك الذين تركوا بيوتهم وممتلكاتهم وتخلصوا من واجباتهم المنزلية كي يصبحوا كهاناً متشردين ينصرفون الى التأمل والتفكير بعيداً عن العالم وضوضائه .

والجدير بالملاحظة ان بعض هذه الاوبانيشادات ورد بشكل محاورات تشبه الى حد ما محاورات افلاطون .

اما تعاليم الاوبانيشاد فتعتبر تعميقاً لما ورد في البرهمانا وتتميز بكونها غير ملزمة اذ يستطيع البرهمان ان يقبلها او يرفضها بحرية تامة .

المصادر

نقلت هذه النصوص عن ترجمة الاستاذ ا. سينار E. Senart من كتابه : *Littérature religieuse.* : وقد وردت في كتاب *Les Belles Lettres.* Coll. E. Senart Librairie A. Colin, 1949. الذي نشر باشراف الاستاذين جوزف شين ورينه كروسيه

١ ـ اللامتناهيان[١]

كل ما هو كاهن هو برهمان . علينا ، ونحن نعترف ان فيه تكمن بداية كل شيء ونهايته وحاضره ، ان نرتـــع في الطمأنينة والسلام . الانسان ارادة ؛ مصيره ، وهو يغادر هذه الحياة ، وقف على الفكرة التي كونها لنفسه ، في هذا العالم ، عن ارادة الحياة[٢] . علينا ان ندرّب ارادتنا .

انها روح خالصة لا جسم لها سوى الحياة ولا شكل سوى الضوء ولا مفهوم سوى الحقيقة ولا جوهر سوى الفضاء ؛ انها اصل كل نشاط ورغبة وكل احساس برائحة او طعم ؛ انها خرساء لامبالية تحتضن كل ما هو كائن .

هذه الروح التي في داخل قلبي[٣] هي اصغر من حبة ارز واصغر من حبة شعير واصغر من حبة خردل واصغر من حبـــة

---

(١) المعنى العام يتناول الدور الكبير الذي تلعبه الارادة الانسانية ؛ فالانسان يقرر ، باعماله الحاضرة ، مصيره القادم .

مفهوم الروح الفردية : أ ــ في مظهرها اللامادي : الروح حياة ونور وحقيقة وفضاء ونشاط ورغبة واحساس .

ب ــ وفق رؤية منبثقة من خيال الشاعر : الروح قائمة داخل القلب وهي اصغر من حبة الذرة البيضاء واصغر من نواة حبة الذرة البيضاء واكبر من جميع العوالم .

انها فكرة اللامتناهيين في الكبر وفي الصغر القريبة من « فكرة » باسكال الشهيرة . وحدة الروح الفردية والروح الكونية .

(٢) اي ان الانسان يستطيع ، اذا اراد ، ان يخلق ، خلال حياتـــه الحاضرة ، ظروف حياته الآتية .

(٣) ان الاتمان ، رغم كونه فكرة مجردة ، قائم في الجسم ، وهذا حسب المعتقدات القديمة .

الذرة البيضاء واصغر حتى من لب حبة الذرة البيضاء . وهذه الروح التي في داخل قلبي هي ، نفسها ، اكبر من الارض والفضاء والسماء ومن جميع العوالم .

هذه الروح في داخل قلبي هي مصدر كل نشاط ورغبة واحساس برائحة او طعم ، وهي تحتضن ، خرساء لامبالية ، كل ما هو كائن . انها البرهمان بعينه[1] . والحقيقة ان الذي يقول في نفسه : « سانضم اليها عندما اغادر هذا العالم » هو صادق فيما يقول . هذا ما قاله سانديليا[2] .

(Chândogya-Upanishad, 3, 14).

٢ ـ ما هو الاتمان[3]

« إذا انهلنا يا صديقي بالفأس على جذور هذه الشجرة الكبيرة التي تراها فانها تبقى حية ولا تموت مع انها تفقد قسماً من ماويتها . كما واننا اذا اعملنا الفأس في جذعها او في قمتها فانها تفقد من نُسغها ولكنها لا تموت . انها تبقى فرحة طروبة بعد ان تغلغل فيها الاتمان والحياة وامتصت بنهم عصارات الارض .

ولكن اذا تخلت الحياة عن احد الأغصان فانه ييبس ، وهكذا يحل بالغصن الثاني والثالث اذا تخلت عنهما الحياة ايضاً . واذا حُرِمَ الكل الحياة فانه ييبس . كذلك اعلم يا صديقي ما يلي :

(١) الاتمان والبرهمان هما نفس الشيء .

(٢) حكيم مشهور تعتبر نظريته عن وحدوية البرهمان والاتمان اساس تعاليم الاوبانيشاد .

(٣) محاولة لتحديد النفس والروح بواسطة سلسلة من التشابيه والصور .

الحق يقال ان الكائن الذي تغادره الروح المحيية يموت ، ولكن الروح لا تموت . بفضل هذا الجوهر اللطيف يحيا كل شيء ، انه الحقيقة الوحيدة ، انه الاتمان . وانت ايضاً يا سفيتاكيتو[1] اتمان .

فاستطرد الابن قائلاً : «زدني علماً ايضاً يا سيدي» فقال له والده : « ليكن ! » :

« ارمِ هذا الملح في الماء وعد اليّ غداً صباحاً . » فذهب سفيتاكيتو ورمى الملح وعاد صباح اليوم التالي الى والده . فابتدره والده قائلاً : « اعد اليّ هذا الملح الذي رميته امس مساء في الماء » . فنظر سيفتاكيتو في الماء فلم يجد فيه ملحاً لان الملح كان قد ذاب .

فقال له والده : « ذق طعم هذا الماء المتموج على سطح البحيرة فماذا تجد ؟ »

– انه مالح

– خذ من ماء الوسط وذق فماذا تجد ؟

– انه مالح

– خذ من مياه القعر وذق فماذا تجد ؟

– انه مالح

– ذق مرة اخرى وعد الى جانبي .

ففعل سفيتاكيتو ما امره به والده وقال : « الطعم مالح دائماً » . فقال له والده عندئذ : « الحقيقة انك لا تبصر الكائن يا صديقي ومع ذلك فانه موجود .

بفضل هذا الجوهر اللطيف يحيا كل شيء ، انه الحقيقة الوحيدة ، انه الاتمان ، وانت يا سفتياكيتو ، انت نفسك اتمان . »

(Chândogya-Upanishad, 6. 11).

(١) سفيتاكيتو Çvetaketu اسم احد الاتباع .

٣ _ الكل[1]

الاتمان عسل جميع الكائنات ، وجميع الكائنات عسل الاتمان . وهذا الشخص الذي يضجّ بالحيوية والخلود والذي يكمن في الاتمان ، وهذا الشخص الذي يتفجر نشاطاً وخلوداً والذي هو اتمان ، هذا الشخص هو نفسه الاتمان وهو نفسه الخلود وهو نفسه البرهمان وهو نفسه الكل .

الحقيقة ان هذا الاتمان هو عاهل جميع الكائنات وملكها . وكما ان جميع عارضات الدولاب مركبة في قلب الدولاب وفي اطاره في آن واحد هكذا تتداخل ، في الاتمان ، جميع الكائنات والآلهة والعوالم والنفثات والافراد .

(Brhad-Aranyaka-Upanishad, 2, 5).

(١) تدور هذه القطعة حول وحدوية الاتمان والبرهمان اللذين يشير اليهما تعبيران : الحيوية والخلود : وكلاهما يعتبر سيد الكائنات ، وهما الكل .

القسم الثالث : مرحلة البرهمانية المتأثرة بالهندوسية

اكتشف واضعو الاوبانيشاد الحقيقة ولكن عرضهم لها لم يعتمد طريقة محددة . ولم يمض وقت طويل حتى انتقلت تعاليمهم الى مدارس ست قامت بتنظيم العقيدة الاصلية الصحيحة وتنسيقها . واشهر هذه المدارس ، التي تحولت الى مذاهب فلسفية ، ثلاث : اليوغا التي اعادت للتقشف قيمته واهميته وعلّمت الوسائل العملية للخلاص والتي اسسها الفيلسوف باتنجالي « Patanjali » . والفيدانتا « Vedânta » التي عرفت بمحافظتها على تقاليد الاوبانيشاد وبتمسكها بالمثالية الخالصة ، والتي يعتبر الفيلسوف سانكارا « Çankara » اكبر ممثل لها . والسانخيا « Sankhya » التي تمثل النزعة العقلانية .

والجديد في هذه المرحلة الهندوسية ان اخلاقية جديدة تقوم على المحبة والاستقامة قد نشأت وحلت محل التقيد الدقيق بالدين ، وان الورع والتقوى والانخطاف والذوبان الصوفي والاتحاد الروحي مع « سيد » صديق تغلبت على الخوف المقدس وعلى قيمة الادراك العقلي او الشك الفلسفي .

وتأثير البوذية على هذا الاتجاه الجديد واضح لا سيما فيما يختص باليوغا . كذلك لعبت موثرات اخرى متنوعة دورًا اساسياً مما جعل الشيع تتكاثر والمعتقدات تتناثر وتتضارب والتقاليد تتبعثر في ملل لا حصر لها ولا عد . وتقلصت حياة الهند الروحية وانحصرت في هذه المجموعات المتنوعة المتناقضة من البدع التي لا تناسق بينها ولا انسجام : انه عصر انحطاط البرهمانية .

بيد ان هذه الفوضى لم تمنع الهند من ان تستخلص من تراثها الديني والعقائدي الضخم صوفية ورعة تنبثق من عاطفة دينية حقيقية ، وطريقة فذة للسيطرة على الذات ، موفقة بذلك ، وفي اطار دينيتها المعقدة المتشابكة ، بين متطلبات الارادة والقلب والفكر السامية .

المصادر

نقلت هذه النصوص عن ترجمة الاستاذ ا. سينار E. SENART من كتابه : *Littérature Religieuse.* : وقد وردت في كتاب *Les Belles Lettres* Coll. E. Senart. LibrairieA. Colin, 1949. الذي نشر باشراف الاستاذين جوزف شين ورينيه كروسيه .

١ ـ البهاكتي[1]

قال بهاكافانت[2] : اعلم يا ابن بريتها[3] اني اخلص من تلوذ افكارهم بي ، اخلصهم سريعاً من اوقيانوس التقمص والموت .

وجّه نحوي افكارك وركّز فيّ ذكاءك عندها تطمئن الى البقاء فيّ ابداً .

واذا لم تستطع ان ترسخ فيّ افكارك حاول ان تبلغني بواسطة التمارين المتواصلة . واذا لم تنجح عن طريق هذه الممارسات ولم تتقدم كرّس عندئذ جميع اعمالك لي ، فاذا قمت بعملك من اجلي وحدي فان باستطاعتك ان تبلغ الكمال . واذا لم تتمكن ، في النهاية ، ان تقوم باعمالك على هذا الوجه وانت تبذل الجهود لتتحد بي ، تنكّر ، بعد ان تسيطر على اهواء نفسك ، للنتائج الناجمة عن اعمالك اذ ان

---

(١) البهاكتي Bhakti : عقيدة دينية قريبة من التقوية (Piétisme) تعتبر ان قيمة التقوى الصوفية تفوق قيمة التركيز الفكري والممارسات التقشفية والزهد بنتائج الاعمال والمعرفة نفسها .

(٢) الاله ، « الطوباوي »

(٣) لقب آخر لأرجونا Arjuna .

المعرفة اثمن من الممارسات الزهدية ، والتأمل اسمى من المعرفة ، والتنكر للنتائج الناجمة عن الاعمال اسمى من التأمل ، كما وان هذا التنكر يقودنا مباشرة الى طمأنينة الخلاص .

لا تحقد على اي كان ، كن لطيفاً رحيماً غير متعلق بمباهج الدنيا ، مجرداً من كل كبرياء ، صبوراً حتى اللامبالاة عند مرأى الالم واللذة .

اني احب من يمارس تعاليم اليوغا وهو قانع ابداً ، مسيطر على نزواته ، حازم في تصميمه ، متعلق بي بعطف وحنو .

احب من يسلمني روحه وفكره .

احب ذاك الذي لا يخشى منه الناس شيئاً ولا يرهب هو من الناس شيئاً ، والذي تحرر من جميع نزوات الفرح والغضب والحقد.

العزيز عليّ هو ذاك الذي ينصرف عن هذه الدنيا ويصبح طاهراً قوياً لا مبالياً البتة ، والذي يسمو فوق كل الاهواء ويتعلق بي بعطف وحنو ويقلع عن القيام باي نشاط نفعي .

العزيز عليّ هو ذاك الذي ينضح بورع حنون ولا يعرف الفرح والكراهية والحزن والشهوة ، والذي ينصرف عن كل ما هو مستحب كما ينصرف عن كل ما هو شاق .

العزيز عليّ هو ذاك الذي لا يميّز مطلقاً بين عدو وصديق وبين شرف وهوان وبين برد وحر وبين لذة وتعب ، والذي يتحرر من كل تعلق وارتباط .

العزيز علي هو ذاك الذي يملأ روحَه تقىً عطوفاً ويتقبل اللوم والمديح بنفس الصمت المزدري ، ويقنع بكل شيء ويظل ، وهو شريد ، رابط الجأش .

ولكن الذين يتعلقون بي كما يتعلقون بهدفهم الاسمى ويثقون ثقة راسخة بتعاليمي التقية التي وزعتها عليك والتي هي الطعام اللذيذ الفاخر الذي يتغذى به الآلهة فانني اكن لهم معزة تفوق المعزة التي اكنها لجميع اولئك .

(Bhagavad-Gîtâ, 12, 7-20).

القسم الرابع : مزامير حجاج *

اناشيد للشاعر توكارام

مزامير توكارام هذه حكاية عفوية صادقة لا حياء فيها ولا وجل ، تروي ، ببراءة الطفولة وعذوبتها ، قصة حياته وابعاد تطلعاته الى الاله الذي استحوذ على قلبه ولسانه . هذه الحياة تعتبر من اغنى التجارب الصوفية التي عرفتها الهند في عهدها الحديث وخاصة في تلك الفترة التي كادت جحافل المسلمين فيها تقضي على روح الدين وتعاليمه وهياكله . انها عملية خلق جديد لذاته ، خلق هزأ بالقيم الاجتماعية الطبقية السائدة وثار على القوالب الطقسية الجامدة التي كادت تسمر الدين وتخنقه .

والغريب في هذه الصورة المشرقة من التصوف البرهماني ان صاحبها كان امياً واستطاع مع ذلك ، بارادته الحديدية وتصميمه وورعه ، ان يحفظ عشرات الالوف من مقاطع الفيدا والاوبانيشاد وان تطبق شهرته ، كمعلم ، انحاء الهند الاربع ، وان يترك عدة مؤلفات منها اناشيد مازالت حتى اليوم تتردد على شفاه الحجاج والمصلين.

وقد كان تأثير جنانديف Jnândév واكنات Eknâth على توكارام كبيراً ، ولا عجب في ذلك فقد كانت فلسفة الاول الصوفية وحياة الثاني الزاخرة بالايمان والتقوى والمثالية اغزر منهل استقى منه توكارام مبادئ سلوكه واسس فكرته ونظرته الدينية .

* نقلها الى الفرنسية وقدّم لها G. A. DELEURY في سلسلة *Connaissance de l'Orient* التي تشرف عليها الاونسكو ونشرتها دارغاليبار Gallimard

١

يعتقد بعض الناس اني اقرض الشعر، والحقيقة ان الكلمات التي استخدمها ليست كلماتي، انها كلمات شخص آخر.

والاسلوب الذي يضفي عليها حلة من الرونق والجمال ليس اسلوبي، فمغذّي الكون[١] هو الذي ينطقني

لست سوى انسان فظ جاهل فهل يعقل ان ادرك الكلمات اللطيفة المنمّقة؟

اتكلم، والواقع ان غوفين[٢] هو المتكلم

مهمتي الوحيدة تقتصر على وزن الشعر
السيد هو الذي يقرضه

اما انا فلست سوى كاتبه، امهر اوراقي بخاتم اسمه

٢

الى طائفة الشودرا[٣] انتسب

---

(١) مغذي الكوني : Le Nourricier cosmique الاله الذي يتغلغل في الكون كله ويسمه بطابعه.

(٢) غوفين : Govind الاله الذي اكتشف البقرات.

(٣) طائفة الشودرا Caste des Choudra هي الطائفة التي تتألف منها جماهير الفلاحين في الهند وتعتبر آخر طبقة في سلسلة ترتيب الطبقات.

اصبحت حانوتياً وانا بعد صغير ،
وكان فيتهوبا[1] ، من الاصل ، اله بيتنا .

كان عليّ ان لا احدثكم عن نفسي ، ولكنها مشيئتكم ايها القديسون ،
وعليّ ، قبل كل شيء ، ان اخضع لكم .

ثم نزل بي الشقاء في هذا العالم فمات ابي وماتت امي واصبحت اشقى التعساء .

وضربت المجاعة بلادنا فنفذ الارث الذي خلّفه ابي .
وفقدت سمعتي كتاجر
وماتت احدى زوجاتي وهي تصرخ : « اريد خبزًا ، أريد خبزًا »

واغرقني هذا البؤس في لجة من الخجل ، واصبحت الحياة ، بنظري ،
لا تطاق .
وكانت تجارتي تبور امام ناظري ،

وحل الخراب بهيكلنا
عندها قررت ان انقاد لنزعتي القديمة .

واثناء الاحتفال الديني الذي يقام في عيد اليوم الحادي عشر[2]
بدأت أغني
ولم اكن قد مارست ، قبل ذلك ، الانشاد في الاحتفالات الدينية ؛
فجاء غنائي ناشزًا

(١) فيتهوبا Vithobâ : اسم يطلق على اله باندهاربور .
(٢) عيد اليوم الحادي عشر « La fête du « Onzième jour ، هو عيد فيتهوبا ويُحتفل به كل شهر .

وحفظت غيباً بعض تعاليم القديسين
واحترمتها ووثقت بها

وكنت ، عندما يبدأون بانشاد احد المزامير ، اردد اللازمة بعدهم،
وهكذا طهّر الايمان نفسي

وكنت استخدم المياه التي تطهّرت بلمس اقدامهم
وهكذا لم يجد الخجل ، بعد ذلك ، منفذًا الى روحي

وانصرفت بكليتي الى خدمتهم حتى اصاب الضنى جسمي

وكنت احتقر نصائح اصدقائي
وبدأت اكره العيش في وسط العالم

ولم اعد أتقيّد الاّ بارشادات ذاتي ان خطأ او صواباً
وكنت أهزأ بالآراء التي يدلي بها بعض الناس

وكنت أصغي وحيدًا للتعاليم المقدسة التي كان يلقنني اياها غورو[1]
في الحلم .
ووضعت كل ثقتي في الاسم[2]

عند ذاك مُنحت موهبة الشعر : فقد وطأت قدما فيتهوبا افكاري

ولكني اصبت بضربة قاصمة طرحتني ارضاً :
فقد حرموا عليّ الكتابة
فأحاط اليأس بنفسي

---

(١) غورو Gourou : الرئيس الديني ، المعلم الروحي .
(٢) الاسم : Le Nom

رموا كتاباتي في النهر
فصممت على البقاء على باب الهي فمدّ لي نارايانا[1] يد المساعدة

اذا اخبرتكم بكل شيء سيطول بي الحديث لان لديّ الكثير الكثير ،
ساكتفي الآن بما رويت

الكل يعرف ماضي
اما احداث المستقبل فالله وحده يعرفها .

نارايانا لا ينسى محبيه ابداً ،
انه رؤوف ، انا شاهد على ذلك .

هذه بضائعي عرضتها امامكم
وباندورانغ[2] هو الذي انطقني .

٣

لو لم اكن منتسباً الى طبقة الفلاحين لقضيت من الصلف .

حسناً صنعت يا الهي ، يا مليكي ،
فتوكا يرقص عند قدميك ويغني .

لو زوّدتني بشيء من الحكمة لتعرضت لخطر عظيم

---

(١) نارايانا Nârayana : الاله المخلّص .
(٢) باندورانغ Pândourang : اسم يطلق على اله باندهاربور .

واهملت خدمة القديسين واحترامهم وتكريمهم
واصبح وجودي باطلاً .

لو وهبتني قليلاً من الحكمة لأصبت بكبرياء مُحقَّر
وسلكت طريق جهنم
وقادني الاعتداد بنفسي الى الجحيم .

٤

كم من الآلام قاسيت خلال دورات حيواتي
قبل ان اصبح جنيناً في احشاء أمي خرجت من باب الرحم ثمانية
ملايين واربع مئة الف مرة .

وها انا الآن وحيد شحاذ
ها أنذا خاضع لسلطة يد غريبة
تلفّني مجموعة حيواتي بشبه شبكة قوية
وتقيّدني الدية التي تترتب علي من جراء اعمالي السابقة
فاتلوّى تحت سياط قوتها وأدور.

لا شيء املأ به جوفي الخاوي
لا مكان في القرية الجأ اليه
لا راحة ولا أمل
تتقاذفني الحياة يا الهي كحبة الأرزّ المتراقصة في المقلاة .

عهود طويلة مرّت عليّ وأنا على هذه الحال
كم سأبقى هكذا ؟ لست أدري .
الدورة مستمرة بلا انقطاع ، والحركة التي لا تستحق الصفح تبدأ من جديد
حتى في نهاية الدورة لا شيء يتغيّر عليّ

من يتحمّل شقائي ؟
من يتبنّى عبئي الثقيل ؟
أسمك السفينة التي تجتاز بنا نهر العالم
انك تهرع الى مساعدة من يستنجد بك

آن الأوان لتأتي اليّ مسرعاً
فانا يا نارايانا فقير معدم
لا تنظر الى نقائصي
اني استعطي شفقتك .

٥

ها انا يا اسيادي عاجز تماماً
لا يدين ولا رجلين لي
كنت اعتلي مطيتي عندما عجزت فجأة عن السيطرة عليها
فجرّتني دون ان ارى شيئاً
لم ارَ
لا اسوجةً ولا ادغالاً ، لا ارومات ولا شعاباً .
ولم يكن هناك من يمد اليّ يد المساعدة ، لا أب ولا أم

تكرّموا عليّ ، يا من تتّجهون نحو باندهاربور[1] ،
وأدّوا لي هذه الخدمة : اصطحبوني معكم يا اصدقاء الفقير .

اصاب الضنى جسمي من جراء هذا الحجّ الباطل
واصبحت تائهاً اتنقل من ضاحية الى اخرى
لم اصادف محسناً يحميني من شرور ولادتي
دعوني ، ايها القديسون ، ارى هذا السيد الذي طالما مجّدته شفاهكم
انه ، في مقره ، في باندهاربور ، يمنح الأبتر رجلين .

ها قد اصبحت عبداً للجميع
رضيت بكل هذا كي املأ جوفي
اتوسل اليهم باستمرار صارخاً : « انت ابي ، انتِ امي »
اسألهم احساناً ولا أكلّ
يردّ عليّ احدهم قائلاً : « اذهب »
بلا شفقة هم
ومع ذلك تحرّضني امالي الضارية وكأنها سرب ضراء .

اية خطيئة ارتكبت في الماضي ؟
لست ادري
اني اجهل مزاياي ونقائصي
ولا أحفظ عنها ، في هذه الحياة ، اية ذكرى .
يطير صوابي اذ اشعر اني مستقل في اعمالي
واصاب بالجنون اذا اشعر اني امتلك شيئاً ما

---

(١) باندهاربور Pandharpour : مدينة هندية مقدسة يحج اليها البوذيون.

تماماً كما يجنّن الضوء الفراشة
منّوا عليّ بالحياة ايها القديسون ، يا كمال الكائنات .

آت من بعيد انا
وقد قاسيت آلاماً رهيبة
الوصول الى هنا كان هدفي الوحيد
دون لقائكم صعوبات جمة
ولكني اراكم الآن
ان الذي يضرع اليكم ، ايها القديسون ، بكل خشوع واحترام ، هو توكا .

٦

قصير ايماني وقصيرة بصيرتي
وقصيرة هي الحياة التي تنزلق من بين اصابعي

بالخطيئة جُبلت
آه ! اصغ اليّ يا من بك جُبل الفيدا[1] .

كيف استأصل خطيئتي والوشائج التي تميّز كائني وشائج خطايا ؟
كنت وكائن انا وسأكون
لا نهاية لدورة الحيوات
لا نهاية لتعاقبها .

---

(١) الفيدا Véda : العلم ، المعرفة . وهي تعني ايضاً مجموعات الاناشيد الدينية المقدسة الاربع التي تعتبر ركيزة الادب البرهماني .

قوة جاذبيتها جعلتني اولد ثمانية ملايين واربع مئة الف مرة
فاضحى جسمي الآن نسيجاً من المتع الثلاث،
قفص مصيري هري تتكدس فيه الولادات والنمو والميتات .

وعندما تبرح روحي الحية كوخها الموقت تتبعثر المواد التي شُيّد بها هذا الكوخ ،
تتجمّع وتتبعثر وتتجمّع كحبات فارغة خاوية .

ابي وامي ، اخي وزوجتي واولادي ، عائلتي بكاملها : خشبات عائمة فوق سطح النهر يجمعها الفيضان ويحملها فترة من الزمن ثم تبعثرها دراديره بعد ذلك

إعمل يا واهب النعم وحررني من جهالتي
فانت الشفقة بذاتها يا جاناردانا[1]
ان توكا يضرع اليك قابعاً عند قدميك متشبثاً بها .

٧

جفّفت الحُميّات الثلاث جسدك
وستحرقه كومة الحطب قرباناً
ولكن مجموعة اعمالك او حيواتك السابقة
ولكن مكانك في الدورة الكونية
هذه لن تمسّها نار .

---

(١) جاناردانا Janârdana : محرك الكائنات .

وستبقى الدورة الكونية تدور
كدولاب البئر : دلو يمتلئ وآخر يفرغ
ولن تبلغ روحك غير الراحة بذاتها
حتى ولو احرقت جسدك الفاني في نيران التضحية الخمس

لا تحرّك شفتيك الاّ لتردد اسم نارايانا
فهو الذي سيقضي على جميع تعاساتك :
سيقضي على اعمالك السابقة التي يجب ان تكفّر عنها
وسيقضي على الولادة والنمو والموت .

مرّن نفسك على التأمل
وعوّد جسمك ، وانت في الغابة وحيداً ، على الزهد والتقشف ،
واعجم عوده بالبرد والحر.

لن تبلغ الوحي الروحاني
مهما تقشفت وحججت وتصدّقت ونذرت وضحيت
ولن تتخلص ، بهذه الطريقة ، من الافراح والآلام
ولن تتحرر من بلايا الولادة والنمو والموت

ستقاسي ، حتى في نسكك ، من الرغبة والغضب والانانية
وستنشأ الكبرياء وانت تردد مقاطع الفيدا برتابة واهمال
وستثقل الواجبات والمحظورات كاهليك أكنت مؤنباً في الخلافات ام متملقاً
كلها اخطاء ستلتصق بجسدك وكأنها اللَزُوق

تكلفُ اللطف اصلُ الخطيئة

فدع عنك الملاطفات الخادعة
وارتم في حماية القديسين
وابقَ في الحال التي انت فيها .

٨

أتراني افوز بالخلاص ؟
هل يمنحني نارايانا النعمة ؟
أفيدوني ايها القديسون ، يا اصدقائي
اخبروني كي يخلد قلبي الى الراحة .

أتراني اتخلص من عبء ماضيّ
وتتلاشى اعمالي الصالحة والطالحة ؟
لقد انهكني التعب وانا اسعى وراء معرفة هذا السر الجوهري .

أترى تزول آلامي الداخلية ؟
أترى تستقر نفسي في احضان السكينة والجمود ؟
أتراها تستقر في احضان الطهارة ؟
اني اجهل ، في الحقيقة ، ما ستكون نهايتي .

أتراني استطيع ان اجمع في كيسي ، كيس الشحاذ هذا ، اجرة تقبيل قدميّ الهي ؟
أترى ينعقد حلقي تحت مداعبات يده الغالية ؟

هل تفوز عيناي بعذوبة تأمل سعادته والعابه ؟

هل تتحقق مطامحي ؟
اني اجهل ما يدّخره لي ماضيّ

هذا هو القلق الدائم الذي يلازمني ابداً
وهذه هي الغصة التي لا تفارقني ليل نهار
القوة تنقصني
فلا استطيع الفوز بهذه الثمرة دون ان اتعرض للسقوط .

٩

فيتهوبا مخلص العجزة والعميان
اوجدنا جميعاً
ويعرف كل واحد منا
يستطيع ان يحطم العقبات التي تعترضنا
ويستطيع ان يزرعها على طريقنا

من غيرك يا فيتهوبا يستطيع ان يخلصنا من الشقاء والغصة العميقة ؟
مليكي الكريم انت
بتعاليمك اتقيد
انت تدرك خفايا نفسي فلماذا اتكلم ؟

على رمال الشاطئ كان يتمرغ بونداليك ويخر ساجداً
كم انت سعيدة يا مدينة باندهاري
جاثمة بين بهيما ونهيرا
لقد تحول اللامنظور منظوراً في عيني بونداليك
فلم يعد يرى غيره

وتجسّد واهب الحب واتخذ شكلاً
وسكب طعام الآلهة غزيراً كالمطر

وُلد اوبامانيو فقيراً عاجزاً
لم يكن يبصر كالآخرين ولم يكن يمشي مثلهم
وبينما كان يتدحرج على الطريق وهو يردد اسم السيد
سمع السيد نداءه وهبّ الى نجدته

واصيب شوكا بالعمى وهو بعد جنين في احشاء امه
وحجّ مراراً ولكن دون جدوى
وانهكته الاسفار فلم يعد يحتفظ منها بغير ذكريات البؤس
وعندها قلت له ايها الراعي الالهي : « لا تخش بعد اليوم مما تقاسي »
واسرع السيد الى مساعدته وخلصه من العار الذي كان يتخبط فيه .

انك تتراءى لمن لا يرى العالم
ولمن لا يبهره الغنى
ولمن اصبح وحيداً
ولمن اقلع عن قول : « لي ، ولك »
ان توكا في نفس الوضع فاسرع الى مساعدته يا نارايانا

١٠

لفنيّ الوهم الكوني بشباكه
ولكن فيتتهال[١] اشفق علي

(١) فيتهال Viththal : اسم يطلق على اله باندهاربور .

فخلصني ووضعني بعيداً
وفتح عينيّ على اعجوبة .

يرقصون ويقفزون ويحسبون الوهم اعجوبة
ويعتقدون ان السعادة الفانية واقع حقيقي .

يبكون ويئنون ويلطمون رؤوسهم
وينتحبون ، حتى الموت ، على صديق فقدوه

اما انا فاني اعجب من نفسي وانا اسمع هذه الاقوال التي اردد .

١١

الحب هبة من الله
هبة تحطم الوهم الذي يجعلني اعتقد اني جسد
وعندما يدرك فكري ذلك يتطهّر
فلا اعود أعي الزمان والمكان

الذين يتعبّدون للسيد يذوقون طعم السعادة وقد تحرروا من كل ضمير سيّئ
وتراهم يترنّمون بالمدائح التي تسبّح باسمه

لقد فازوا بالمكافأة الأبدية ، المكافأة التي لا تفنى : فقد جعلهم السيد يتقمّصون خدماً له
وهكذا لن يعودوا الى احشاء امهاتهم مرة ثانية
وسيشاركون المطلق في حياته .

لقد حصلوا ، وهم يرددون اسمه ، على المكافأة الحقيقية
فلم يعد ، في المدينة التي يقطنها اولاد السيد ، مخالفات .

١٢

أرِني يا سيدي صورتك
صورتك التي تظهر فيها ويداك على خاصرتيك
وسبحة تولسي تلفّ عنقك

أرِني يا سيدي صورتك
صورتك التي تظهر فيها ورجلاك متلاصقتان فوق قرميدة

أرِني ، ولا تتأخر ، صورتك
صورتك التي يبدو فيها وسطك وهو يزهو في دهوتار[١] من الحرير
مزين بعقدة لطيفة .

لتبقَ صورتك
صورتك وانت تمتطي عصفور غارود[٢]
مرتسمةً في اعماقي .

---

(١) دهوتار Dhotar : شال خفيف لطيف يُعقد عند الخاصرة ، وهو لباس الاله الوحيد .

(٢) غارود Garoud : مطية الاله فيشنو الخاصة وهي نسر عملاق له جسم انسان .

انظر !
لقد انحلت عظامي وذابت وانا انتظرك يا سيد باندهاري،
فتعال لزيارتي
استجب لصلاتي المتواضعة وتعال وحقق امالي .

١٣

اجترح نارايانا العجائب في هذه البلاد
فمشى على قوائم اربع ، وحرس بقراته .

قام بهذا الدور وتجسّد هذه الشخصية
ولكن اشكاله لا تحصى .
قبل ذلك تجسد شخصيات اخرى .

لقد تجسّد نارايانا كي يرسخ دعائم الايمان .

١٤

اتخذ الهي الكئيب له وجهاً
وجه طفل عارٍ رقيق

ومضى ، بين ابقاره وحارساتها ، يزور بونداليك

آه اي عُري نضير هو هذا !

ساذج صامت
ينتظر حبنا واقفاً
ويداه على خاصرتيه

يجهل المخادعة
بسيط غاية البساطة
على قرميدة يقف
رجلاه مضمومتان ويداه على خاصرتيه

قوته الأرز واللبن
على كتفه شبكة لنايه وشبابته
وفي يده هراوة الراعي

نهر بهيما الذي يلف باندهاربور وكانه « الهلال »
فاتن لغراميات باندورانغ

يتأمل ، وعيناه مسمرتان ، الموجة المتدحرجة في الوسط

لقد وعد بونداليك بان يسمح للجهلة ان يمروا على زورقه

ومع انه يقيم في الجنة فانه يبقى، في الوقت نفسه ، بين اخصائه .

١٥

مَلَكي هو ،
لطيف كالطفل
تنخسف الشمس والقمر من نوره
صورة الحب الحية هو

جبهته معطّرة بالمسك
وجسمه مضمخ برائحة الصندل
وحول عنقه عقد فايجاينتي[1]

التاج المذهب والاقراط تلمع حول وجهه المبارك
والسعادة حوّرت ملامحه

حول خاصرته قطعة من الحرير المذهّب
انظرن ايتها الراعيات كم هو برونزي الهي
الهي القائم كغمامة !

تعالوا كلكنّ واصحبنه اليّ
فتوكا لا يستطيع العيش بعيداً عنه .

١٦

أتت الأميرة الشابة المتلألئة تشهد شعوذاتي
فأضاء بريقها قرص الشمس

الروح السامية حبيبتي .
فوق جسدها يتلاعب آلاف مؤلفة من الشموس والاقمار

قدماك يا اميرتي فيتهابي[2] هما موضوع تأملي الوحيد
فكفّي عن الوجود في العوالم الاربعة عشر وترائي امام ناظري

---

(١) فايجاينتي Vaïjayanti : اسم إلهة .
(٢) فيتهابي Vithâbai : ابن باندهاربور وقد تحول الى اميرة متلألئة .

جميلة انت بعذوبتك الطفولية ،
وكم هي لطيفة خطواتك !
تقفين على ضفاف البهيما ساكنة دون حراك
وسبحة تولسي[1] تلف عنقك
اسنانك لآلئ براقة
وفي يدك اسلحة فيشنو التقليدية : القرص القاتل والدرع

الفيدا تجهلك
انت التي لم تتجسدي ولم تتبرّجي
لقد اصاب الوهن جميع الثعابين الالهية يا شيشا[2]
ولم تعرف التقاليد ان تفهمك
ولكنك تقولين لاتباعك
وانت رافعة ذراعيك : « لا تخافوا »

قدّمت فيتهابي الى باندهاربور وتجسّدت في زهرة اللوتس
وأثّر فيها ايمان اتباعها
فسكبت لهم طعام الآلهة غزيراً كالمطر
وقدّمت الى توكا ، عبدها ، لبن الحب ليشرب .

١٧

لنُخْلِ افكارنا لفتهال[3]
ولنغنّه في اناشيدنا
ولنتأمله وهو واقف فوق قرميدته .

---

(١) تولسي Toulsi ضرب من العشب يتحول في الهند الى شجيرة صغيرة يستخدم خشبها كحبات سبحة .

(٢) شيشا Chécha : ملك جنس الافاعي وله الف رأس .

(٣) فيتتهال Viththal : اسم يطلق على اله باندهاربور.

صديق من لا اصدقاء لهم هو
فيض النعمة هو
مقوّض ضيقنا وموتنا هو

يمنح الخلاص السائل المتضرع
ويقيم عند القديسين

مقر الفضائل هو
والكمال التام هو
اسمه يهب السلام الأبدي

تعرفت اليه فغمرتني السعادة
وفاض فمي رقة وعذوبة

١٨

ايها الوهّاب
دع افكاري المتحررة ترتاح عند قدميك ،
قدميك اللتين تداعبهما يداي

ليتبارك فيتهوبا
العبقرية الفريدة
ومصدر الفضيلة والجمال
والجوهرة الوحيدة المتلألئة على تاج العالم .

ليطلع نهارك قاهرُ الليل
ولتسكن في قلبي الذي انحلت عقدة اهوائه

انظر
ان جهلي يقف عقبة في طريقي
فاعتنِ بي ،
رأسي ملقى عند قدميك فاحفظه ابداً هناك .

١٩

مُناي ألاّ يغرب وجهك عن ناظري يا سيد راكهوماي ،
يا حبيبي .

عذب اسمك ولطيف شكلك
هبني الحب دائماً وابداً

انعمي عليّ يا فيتهو ، يا امي الصغيرة ، فاسكني في قلبي

لا ينقصني الاّ هذا
سعادتي كلها عند قدميك

٢٠

لم أعد استطيع الآن ان اركّز تفكيري الاّ في هذه الرؤيا

فانا لا افكر الاّ في باندورانغ
ولا أتأمل سواه ، واعياً كنت او حالماً .

جميع حواسي متجهة اليه
فهو هدفها الوحيد

في عيني اشارة مميزة : الصورة الجامدة على قرميدة .

٢١

سر نحو باندهاري
سر اليها واصبح حاجاً ،

السعادة الكاملة في متناولك
فلماذا تغادر شاطئ الرمل وتتمنى الجنة ؟

ارفع الراية الحمراء فوق كتفك
وضع سبحة تولسي[1] حول عنقك
وعجين الصندل على جبهتك

لقد قادتني الطريق التي قطعتها متدحرجاً الى اعظم القديسين

(١) تولسي Toulsi ضرب من العشب يتحول في الهند الى شجيرة صغيرة يستخدم خشبها كحبات سبحة .

٢٢

يصعد الحجاج الى الهيكل يستأذنون سيدهم

وفي اليوم المُعدّ للرحيل يشربون آخر طاس من اللبن المبارك

الشهقات تعقد احلاقهم والرحيل يمزّق احشاءهم

يتعانقون ويشجّع بعضهم بعضاً متمنيا له سفرًا موفّقاً

ولا يفتأون يتطلعون الى الوراء ليكحلوا عيونهم ، مرة اخرى ، بمنظر برج الهيكل .
آه من عذاب السفر ، انه لا يطاق !.

٢٣

موكب الحجّاج تحرّك
فوداعاً يا باندهاري وداعاً

يسيرون وذكرى الاحتفالات التي شهدوها تحفّ بهم

الكلمات التي تفوهوا بها وسمعوها حفرت الحب في قلوبهم

الرايات الحمر والصنوج والطبول تحيط بهم من كل جانب
ويحدث بعضهم بعضاً عن سعادته

ها هم يقتربون بخطىً حثيثة
سأذهب لاستقبالهم
وسأضمهم بقوة الى قلبي .

٢٤

ايها القديسون
وطئتم افكاري باقدامكم، فاضمحلت قوة الظلمات
واختفت الاضطرابات التي كانت تنتابني

وتحرر قلبي من كل وجل
واقام الاله في بيتي وفي الغابة

حتى احلامي ، هي الاخرى ، تحررت من كل خوف .

٢٥

الحب هو الهواء الذي تنشقه قرية القديسين
فلا قلق بعد اليوم ولا ألم

سأقيم في قريتهم هذه
استعطي الحب

الحب هي الصدقة التي سيحسنون بها عليّ
فيتنهال هو كل ما تملكه قرية القديسين
انه ثروتها الوحيدة

سأظل أشحذ سكانها الحب
غذاؤهم طعام الآلهة
والمزامير اناشيدهم الدائمة
سيتصدقون عليّ : الحب صدقتهم

لا تجارة في قرية القديسين الاّ مشاركةً
العربات فيها ملأى بالحب ...
تطوف القرية وهي توزّع السعادة

هذه طرقات قرية القديسين ،
وهذه طرق تعامل القديسين فيما بينهم
وهذا هو السبيل الروحي ، سبيل الحب
وقد ارتضيت ان اكون شحاذاً هناك
اطوف القرية استعطي .

٢٦

مقدسة هي العائلة التي تنجب للسيد خداماً
ومقدسة هي الارض التي تنبت للسيد خداماً

نارايانا اضحى قانونهم والقطب الذي يجذبهم اليه
يقدسون العالم الذي تلتقيه الروافد الثلاث

لو كان الاعتداد بالنسب يجعل صاحبه قديساً لما ترددت في تأكيد ذلك

فقد افتدى اسم السيد اناساً ينتمون الى أوضع محتد
والروايات القديمة غنية بمثل هذه الاحداث :

غورا الخزّاف اصبح خادماً لفيشنو
وكذلك الاسكافي روهيداس والحائك كابير والمسلم لطيف والحلاق سينا

ولم تعرف الراقصة كانهوباترا والمنجّد دادو طعم الراحة الاّ عند اقدام السيد
لقد كانا يتغنيان باسمه على الدوام .

كذلك توصل المنبوذان كوكهاميلا وفانكا الى الاتحاد بسيد العالم

وكان ايمان جاني ، خادمة نامار الصغيرة ، كبيراً جداً
حتى ان ملك باندهارى اتى يتعشى عندها

من يعرف اصل جاناك مايرالا ؟
ان عظمته تحملني ، مع ذلك ، على السكوت

لا قيمة للنظم الطبقية والعائلية في نظر خدام السيد : الكتب المقدسة والتقاليد تؤكد ذلك

لقد خلّص الاسم عدداً لا يحصى من الساقطين
راجع الكتب فهي خير شاهد على ذلك .

٢٧

كل شيء يتحول نارًا
ويبقى نارًا
عندما يلامس النار

ماذا يبقى من الاسم والجوهر والطبيعة بعد ذلك؟

يتحول الحديد ، عندما يلامس الحجر السحري ، الى ادوات زينة يستخدمها الناس

وتتحول الانهر والجداول والسواقي الى غانج[1] عندما تختلط مياهها بمياه الغانج

ويتحول كل خشب الى صندل عندما يلامس الصندل المعطّر
تبارك توكا عندما لمس اقدام القديسين
فاين الفرق بينه وبينهم بعد ذلك ؟

٢٨

يقولون ما يجب ان لا يُقال
صحاةً يبدون وهم في الحقيقة نيام
بيتَ دمية بنوا عندهم
وهم لا يعرفون ، للاسف ، أنهارٌ هو الوقت ام ليل .

(١) الغانج Gange : نهر الهندوس المقدس .

وانطلق انا
شحاذُ الاله
منتقلاً من بهو الى باب
ومن جسم الى قلب
صارخاً :
« تصدّق عليّ يا هذا ، أياً كنت ! »
آه ! سأعود مرة اخرى اذا رددتني
الصنوج والأحادية في يديّ
اردد الأناشيد
واثير صخباً ، اي صخب !
لا فرق عندي بين كبير وصغير
آه ! لا تواصل رقادك حتى تتجنّب الاحسان اليّ .

انا شحاذ الاله
شحاذه الحقيقي
إقدح زناد فكرك وستعرفني
فقد تعرّف علي جميع القديسين
آه ! لن يسألك احد بعدي احساناً .

أنائم انت ام صاحٍ ؟
لقد حللت وثاق اهوائك الضارية
وتركتها تربض ككلاب الحراسة عند بابك
اهواؤك هذه تنبح
وتعرّض للخطر خيرك الحقيقي
آه ! شحاذ الاله لن يدخل بيتك بعد اليوم

ها قد افاق الكل من رقادهم :
فضائل بعضهم فتحت قلوبهم لاستقبال شحاذ الاله
اما خطايا الآخرين فقد سدّت امامهم سبل الالتقاء .

٢٩

ها هو البائع الجوّال
يطرق الابواب صارخاً : « من يشتري الاله ، من يشتريه ؟ »

— لا اريد الاله ، لا اريده
لقد امتلأت خزائني ولم يعد فيها مكان خالٍ

— سعر الاله في انخفاض ، في انخفاض ،
لقد انقص ثمنه فما عسانا نفعل بعد ذلك ؟

— خذ الاله بلا بدل ، خذه بلا بدل
لا امل في دفع قرش واحد

وهكذا اشترى توكا المسكين ، الضعيف الايمان ، الاله
اشتراه بالتقسيط
ووقع ، من جراء ذلك ، تحت عبء الدين .

٣٠

ـ ابن آوى يزمجر ؟
ـ لان الاسد لم يظهر بعد !

ـ المحيط يرغي ويزبد ؟
ـ لانه لم يبصر الحكيم اغاستيا بعد !

ـ كلمات الزهد والنسك تتردد ؟
ـ لم تتراء بعد اية امرأة جميلة !

ـ كلمات الشجاعة ترن في الاذان ؟
ـ لم يتقدم بعد اي محارب صنديد !

ـ ماذا هناك ؟ سبحات وخضاب مقدس ؟
ـ لم يظهر توكا بعد .

٣١

ـ الصوان يلمع ؟
ـ لان الماس لم يتلألأ بعد !

ـ المصباح ينير ؟
ـ لان الشمس لم تشرق بعد !

– ماذا هناك ؟ قصص قديسين ؟
– لم يلتقوا توكا بعد !

٣٢

أنقيم باباً ضيقاً بين فسحتين لا حائط يفصل بينهما ؟

ما قيمة سور الصمت اذا كانت الفكرة تسرح في زوايا السماء الاربع ؟

عندما نكون خارج منازلنا نتبختر بملابسنا ونزهو
اما في بيوتنا فنكاد لا نستر عرينا .

حواسنا تشوّش نفوسنا وتغرقها في خضم من الفوضى
فما الفائدة اذاً من تنظيم مظهرنا الخارجي ؟

نجصّص اعتابنا بالخثيّ المطهّر
ونترك ارض منازلنا بؤرة للاقذار ومستنقعاً للمياه الآسنة

وفي نهاية الامر نجدنا صفر اليدين .

٣٣

على من يريد ان يعيش ايمانه ان يبذل جهوداً مضنية

عليه ان يبشّر بقانون الفيدا
وان يقتدي بالقديسين الاسلاف

اما الذي يعرض عن العمل
دون ان تسيطر نفسه المستقرة على جسده
فهو جبان

وينقلب حب الاله خطيئةً
في هذا الكائن المنحط .

٣٤

يا الهي ، يا مليكي
انت الذي تقيل عثرات الساقطين
مستحيل ان نتمتع بسمعة عطرة

اذا عشت في دوامة المشاغل اليومية قالوا : « كم هو خاطئ ! »
واذا اعرضت عن العالم قالوا : « يريد ملء جوفه دونما جهد ! »

اذا مارست الشعائر الدينية قالوا : « يمارسها ليتباهى ! »
واذا اهملتها قالوا : « يهملها لانه يحتقر العادات والتقاليد ! »

اذا نشدت صحبة القديسين قالوا : « أي مبتدئ هو هذا ! »
واذا تجنبتها قالوا : « مغفل احمق لا يفقه قيمة هذه الصحبة ! »

اذا بدت مظاهر الفقر عليّ قالوا : « الاله يعاقبه » !
واذا ظهرت دلائل الغنى قالوا : « يظهر غناه ليحطمنا بكبريائه ! »

اذا تحدثت في أكثر الأحيان قالوا : « كم هو ثرثار ! »
واذا اقللت من الكلام قالوا : « انه يحتقرنا ! »

اذا كان اصدقائي قلة قالوا: « السبب في ذلك طباعه السيئة ! »
واذا قمت بزيارة اصدقاء كثيرين قالوا : « انه يبدّد ما ورث ! »

اذا تزوجت قالوا : « انه نزو » !
اذا اقلعت عن الزواج قالوا : « انه عاجز ! »

اذا لم أرزق اولاداً نظروا اليّ وكأنني ابن حرام
واذا رُزقت كثيرين قالوا : « انه يستعمر الجحيم ! »

آراؤهم قيء
أعليَّ ان اتركه على يدي اذا سقط عليها ؟
الكفرة لا يستسيغون صحبة القديسين.

اصغِ اذاً لما يقوله توكا : ارحل عن هؤلاء الناس واذهب بعيداً وتعبّد

٣٥

الولد الذي لا ينشد سوى خيره الحقيقي
هو سعادة والديه القصوى .

الإله نفسه يسعد بهذه العائلة
يترعرع اولادها في جو القداسة

يحبون الاصغاء الى قراءة الجيتا[1] المقدسة
وقد وهبوا فيتهوبا[2] قلوبهم

لو كان لي ابناء كهؤلاء
يقومون على خدمتي
لما طمعت في مصير افضل.

٣٦

البهلوان يتجسّد شخصيات ابطاله
ومالك الحزين يبدو ، امام الاسماك ، وكأنه تمثال جامد

الوَرِع الكاذب يطلي جسده بالخضاب المقدس
ويزدان بسبحة فيشتو واقراطه
ولا يدع العالم يرى شَرَكَه

الصياد يقذف بالطعم
ولكنه لا يدع الاسماك ترى الصنارة التي تختفي تحته

---

(١) جيتا Gîtâ : النشيد المقدس .
(٢) فيتهوبا Vithobâ : اسم اله .

الجزّار يسمّن خرافه ويرعاها بحنو ورأفة
ولكن ليذبحها

وهكذا انا
اتظاهر امام العالم اني قديس
ولكن ...
اغفر لي انت يا باندورانغ .

٣٧

تهتز لحية المرتّل
فيشهق لها الراعي المصيخ

يردد المصغون في نفوسهم : «انه الحب الصافي !»
اما انفعاله هو فيختلف تمام الاختلاف

وتنحدر دموعه وقد تحررت
ويتذكر الارساغ والحوافر

ويحيله قناع المه أبكماً
فيبكي اذ ذاك ضياعه

وتتحرك اصابع المرتل
فيرى فيها قرنين وقوائم اربع

ويركض قلبه وراء عنزته الميتة
فيضرب الارض اذ ذاك بقدمه
ويعصر الالم اعماقه
فيصرخ ، في النهاية ، مردداً اسم عنزته .

سيظهر الخفي ، يوماً ما ، لجميع العيون .

٣٨

اصحاب الرذيلة يتلذذون بشقاء الآخرين

هذا هو طابعهم

يَسِمُهم الحسدُ بميسمه
ميسم مستحقي الجحيم

يفتحون آذانهم ليستمعوا الى النمائم وكلمات اللوم .

مهرّجون هم الذين لم يتحكموا بالسنتهم .

٣٩

نقائص الآخرين أراها
ولكنها ليست اقل من نقائصي .

خطايا الآخرين اعرفها
ولكنها لا تفوق خطاياي

جرائم الآخرين كشفت الستار عنها
ولكن جرائمي اكثر منها

اذا كان هناك من هو اكذب مني
فدعوني أراه

انوء تحت عبء الرذائل كلها
ومع ذلك فهي تقدمتي اليك يا سيدي .

٤٠

البغاء تستطيع ان تردد ما تُلقّن
ولكنها لا تفقه شيئاً مما تردد .

اذا حلمنا بالسلطة
فحلمنا لا يجعلنا ملوكاً
لقد برهنت لي التجربة على ذلك .

لماذا انحلت عقدة لساني اذا كان ذلك يبعدني عن قدميك ؟

الكنز الذي يبدو في المرآة لا يملأ اليد او الصُرّة
ومع ذلك تراه عيوننا حقيقة قائمة .

الرغبة تتآكلني دائماً وابداً فابقى فريسة للجوع :
اني اعيش في عالم خاوٍ فارغ .

الاناشيد التي انظمها مجرد كلمات .
كلمات مفروض فيها ، اذا ما صدقنا الشعراء القدامى ، ان تهبني ،
مع ذلك ، طعماً .

يحرس الراعي قطيعه ويردد في نفسه : انه قطيعي
ولكن الفائدة ، في النهاية ، لا تعود عليه .

٤١

قشرة جوز الهند قاسية
اما اللب فلذيذ

فلماذا نستقصي القشور
اذ كانت الخلاصة في الداخل ؟

قشرة الجاك[١] خشنة
اما اللب فلذيذ جداً

قشرة قصب السكر سوداء
اما عصيره فآية في الحلاوة .

---

(١) الجاك Jaque : نوع من الثمار .

نكهة الطعام ملحُه
فلا داعي اذاً للبحث عن مذاقه في مجال آخر

القيمة في المذاق
اما المظهر فلا تأثير له .

٤٢

كيف نجني الطاهر دون الدَنِس ؟
لا شيء بين اللحم والجلد .

ما من قيمة تجعل صاحبها كبيراً او صغيراً امام الله

لا فرق بين مياه البئر والساقية والجدول والنهر

هل تفرّق الشمس بين شعاعاتها ؟
ان اضواءها تجفف الرطب ابداً .

لا فرق في البياض بين حليب وآخر
جميع الابقار تدر نفس الحليب .

لا فرق في التركيب بين طين وآخر
شكل الآنية هو الذي يعطيها اسماء مختلفة

النار تحرق بطريقة واحدة
لا فرق عندها بين خشب طاهر وآخر دَنس

الاناء الجيد يبقى جيداً سكراً وضعنا فيه او طعام آلهة او سُماً .

٤٣

اسمع يا اخي :
الغانج[١] ليس مياهاً
والتين والبنبال[٢] ليسا شجراً
والتولسي[٣] والرودركشا[٤] ليسا عشباً
ولكنها اجمل اعضاء الاله .

البحر ليس ساقية
ما في ذلك شك
واللينجا[٥] ليس حجراً

والقديسون ليسوا من عامة الناس .
لا تسمي قضيب الحاج هراوة
ولا قربانه قوتاً .
مقاطع « الرام رام »[٦] المقدسة ليست كلمات

---

(١) الغانج Gange : اكثر الانهر تقديساً عند الهندوس .
(٢) البنبال Pimpal : شجر مثمر .
(٣) تولسي Toulsi : ضرب من العشب يتحول في الهند الى شجيرة صغيرة يستخدم خشبها حبات مسبحة .
(٤) رودرك Roudrakcha : نبات عشبي .
(٥) لينجا Linga : صورة الاله المحفورة في الحجر .
(٦) رام رام Ram Ram : مقاطع الصلاة تردد كاللازمة .

والقمر والشمس ليسا كوكبين
والميرو[1] ليس جبلاً
والشيشا[2] والفاسوكي[3] ليستا من نوع الحيات السامة

والغارود[4] ليس عصفوراً
وثور شيفا[5] ليس حيواناً

وشجرة اندرا[6] ليست نباتاً
وكامادهينو[7] ليست بقرة

وليس الذهب معدناً
ولا الملح معدناً غير خالص
وجلد الظبي والنمر ليسا جلد حيوانات

والدرر ليست حلى
ولا الماس حصى
وليست الروح ضيفاً نطرده ساعة نشاء

---

(١) ميرو Merou : جبل اسطوري يحتل وسط الارض .
(٢) شيشا Chécha : ملك جنس الافاعي ، له الف رأس .
(٣) فاسوكي Vasouki : اسم افعى كبيرة ، تعتبر ملكة الافاعي .
(٤) غارود Garoud : نسر عملاق له جسم انسان وهو ملك الطيور ومطية الاله فيشنو .
(٥) شيفا Chiva : المحطم ، الاقنوم الثالث من الثالوث الهندوسي .
(٦) اندرا Indra : اعظم اله عند الفيدا .
(٧) كامادهينو Kamadhénou : اسم بقرة سماوية من مميزاتها انها تدر لبنها دون انقطاع .

٤٤

هل تدرك زهرة اللوتس البيضاء عطر عبيرها ؟
النحلة هي التي تستمتع به .

وهكذا انت
لا تعرف اسمك
اما انا
فاني اتذوق حلاوة الحب كلها .

البقرة تقضم العشب المر
اما العجل فانه يتفرّد بحلاوة الحليب ،
تشقى البقرة تحت وطأة النير
اما هو فيتمتع بما لذّ وطاب .

المحار يُنضج اللؤلؤة في احشائه
ولكن اللذة تزول بعد فرز اللؤلؤ .

٤٥

الدودة القابعة في قلب ثمرة التين
الثمرة هي كل عالمها

وكم من ثمار على شجرة تين ؟
وكم من اشجار تين في القارات التسع ؟

هذه القارات هي الكون بالنسبة لنا
اكوان متشابهة ولا نهايات .

وكما تكسو هذه الشعرات اللامتناهية جسم هذا العملاق الاولي
كذلك تتكدس في احشاء الهي ملايين العمالقة المماثلة

لقد استحال الهي ، وهو الفرح اللامتناهي ، الى طفل صامت ، طفل أنندا[1]

انها لعبة السيد الغامضة
ازدان بالفرح الكامل
فجعل نفسه في متناول توكا .

٤٦

تشقى طوال النهار لتشبع جوعك
ولكنك لا تهتم بخبزك الحقيقي .

كان يعتني بك وانت لم تزل جنيناً في احشاء امك

وهو الذي أمطر عصفور الوقواق الابيض بفيض من السحاب المغذّي
فكيف يمكن ان ينساك ؟

---

(١) انندا Ananda : اسم والد كريشنا ويعني الفرح والغبطة .

العصافير البرية
وحيوانات الغاب
وكل ما هو حي على اديم هذه الارض
هو موضوع عناية السيد وحنوه الدائم .

سيد المصير لا يمكن ان ينساك
اذا عمر قلبك بالثقة .

٤٧

أي يد تحرّك جسمي ؟
من غير السيد ينطقني ؟

من يدعني ارى ؟
من يدعني اسمع ؟
انه نارايانا
نارايانا فقط
فلا تتوانى في التعبد له .

الاله هو الذي يخلق فيّ الوهم باني انا
وذلك عندما اقول : « انا اعمل »

يده تحرك أوراق الشجر
فأين يستطيع اناي ان يجد مكاناً ؟

فيتهو يملأ الكون كله
فاي كائن حي او جامد يمكن ان يوجد من دون وجوده ؟

٤٨

يبقى الفيدا صامتاً رغم كل ذكائه
ولكن الراعيات يتذوقن لذة المخيض

لمَ هذا ولمَ ذاك ؟
على الذكي ان يدرك ذلك .

الخطأ الذي يرتكب أثناء رتبة الاحتفالات الدينية يسدّ فم الذبيحة
ولكن كم هي لذة تقديم البندقة كقربان !

كل جهد من غير ايمان باطل .

٤٩

تذهب احدى نساء كوجاري ترد الماء
فيستحوذ ابريقها على كل تفكيرها
تمشي فتنفك عقدة ساريها
ولكن قلبها يبقى هناك مرفرفاً حول الابريق .

تنطلق طيارة الولد في الفضاء :
ها قد بلغت اقصى البعيد
ويبقى الولد ممسكاً خيطها بيده
ولكن قلبه ينطلق محوماً حولها في البعيد .

يرتكب اللص سرقة
ويخفي في الغابة ما سرق
ويروح ويجيء في القرية
ولكن قلبه يحوّم هناك في الغابة .

تقوم المرأة الزانية باعمال بيتها
ولكنها تعيش لعشيقها فقط
ويبقى قلبها يرفرف حوله .

ترانا غارقين في مشاغل لا قيمة لها
مع ان علينا ان نحتفظ بقلوبنا في احضان السيد .

٥٠

منذ ثلاثة عشر يوماً وانا صائم
ومع ذلك لم تأت اليّ يا ابتاه
وبقيت بعيدة عني
انت التي كنت دائماً وابداً امي .

لماذا تحتفظ بقلنسوتك الحجرية ؟
ما دهاك في سمائك ؟

سأحطم حياتي :
وبين يديك انت يا باندورانغ ستُرتكب هذه الجريمة .

كنتِ املي الكبير
حتى اني كنت ادعوك امي الصغيرة
ساحطم حياتي يا باندورانغ

ها قد بلغت النهاية
سأذهب وأغرق نفسي في الكاندرابهاغا[1]

٥١

أأحدثك بعد عن نفسي يا الهي ؟
الا تعرف اذاً كل شيء عني ؟
قرّر! فانا باقٍ ها هنا .

فكري يتعثّر
لم اجد لذلك علاجاً
سوى ان اضع حياتي عند قدميك الى الابد .

---

(١) كاندرابهاغا Candrabhâga : اسم اله .

التمتع شر والزهد شر
فعن ماذا نعرض وبماذا نتعلق ؟
لم اعرف ابداً ان اقرر ماذا افعل .

عندما يضيّع الولد امه في الغابة
ويعجز عن اللحاق بها
فانه يبكي وينتحب يا فيتهتهال .

٥٢

لمَ جعلتني شقياً
ورميتني في عزلة اين منها عزلة الشحّاذ ؟
لمَ تحجم يدك عن مساعدتي ؟

يخجل قلبي اذ يقول انه عبدك !
آه كم هو مرّ طعم هذه الكلمات في فمي !

قديسو الازمنة الغابرة كانوا يخجلون منك
ولكني لم اكن اصدق حياءهم
اما الآن فقد ادركت انهم كانوا صادقين في قولهم .

نعمتك التي تغمرني هي وحدها سبب أنيني يا يا فيتهتهال .

٥٣

اتلفّت ورائي
كما تفعل العروس الشابة
وهي ذاهبة الى بيت حميّها
فمتى اجدك ايها الاله العَكِف ؟

الطفل الذي يضيّع امه
يتلفّت وراءه باحثاً عنها مصعّداً الزفرات

وكالسمكة التي تختنق عندما تخرج من الماء
هكذا يختنق توكا .

٥٤

ليلَ نهار أحرس الطريق
مصباحي مُضاء

الضجر يتأكل قلبي
آه كم اتمنى ان أراك !

خرجتُ اشهد رحيلك
واضجعت روحي على الطريق التي سلكت

أُحصي مراحل سفرك
والأيامَ ، حتى تحين أوبتك .

٥٥

أحدّق طوال النهار
وكفي تظلّل ناظري
اتفحّص طريق باندهاري
وانتظر .

وأحمّل جميع الذاهبين الى حيث تقيم أمي هذه الرسالة :
« لماذا تتركيني في بيت حميّي » .

ولكن ما هي هذه الصورة ذات الاذرع الاربع المهتزة التي تشبه فيتهتهال ؟
نراها ، على ضفة هذا العالم الاخرى ، تعتلي صهوة العصفور غارود[1]

لقد نفد صبري !
فمتى نرى باندورانغ ثانية ؟

٥٦

كنت انتظر رسالة
كنت انتظر رسولاً
فهل أشفقت عليّ ؟

(١) غارود Garoud : نسر عملاق له جسم انسان ويعتبر مطية الاله فيشنو.

حتى متى يا باندورانغ ؟
عندما استقبلتني في باندهاربور
احييت الامل في اعماقي .
لقد خدعتني !

ما زلت اتساءل :
ماذا جنيت من ولادتي ؟

لم أفز بإرثي الشرعي
والعالم يغرقني بالاعيار :
هذا كل ما تجمّع في خرجي .

٥٧

كيف استطيع اكتشاف سرك الغامض ؟
الكتب المقدسة تقول انك لا محدود .

تحوّل ايها الفردوسي الى طفل ضعيف جميل
كي استطيع ان أراك .
استجب لرغبتي الجامحة
وتجلَّ لي بصورتك التي تظهر فيها واذرعك الاربعة تهتز

الى ابعد من الجحيم السابع تمتدّ
والى ما وراء السماء الواسعة تصل
فهل تستطيع عيناي ،

عينا البعوضة هاتان
ان تتكحّلا برؤياك ؟

انك تحل في الجسد الذي يتمناه اتباعكَ :
انا اعرف ذلك
انت بنظري ، بنظر توكا ، فيتهوبا باندهاري

٥٨

أين تختبئ ؟
من ذا الذي اسرعت تساعد ؟
أنائم أنت يا الهي ؟

اين تختبئ ؟
أي نداء حب يقعدك ؟
ألا تستطيع ان تتحرر وتتخلّص من وجوه الراعيات ؟

من ذا الذي تفرّج كربته ؟
هل يؤخر بُعد الطريق وصولك ؟

هل أثارت ذنوبي وأخطائي غضبك يا سيد القدر؟

قل لي :
ماذا خططت على جبهتي ؟
كل ما تبقّى لي من الحياة قابع في عينيّ .

٥٩

العالم يضطهدني
فهل مات نارايانا ؟

يتيم انا
لا أمل ولا ملجأ ولا حماية .

العالم يبعث الخوف في أعماقي
فهل أصبح الإله اذّا وقحاً ؟

غياب الاله حوّل البلاد الى صحراء .

٦٠

من سيهمس في أذنيّ هذه الكلمات :
« اذهب فسيد باندهاري يدعوك » .

وعندها أقفز الى الطريق الذي يقودني الى امي
دون ان اذرف على هذا العالم دمعة واحدة .

قلبي الخارج من الظلام يتحرّق ملالاً
فمتى تبصران يا عينيّ رسولاً قادماً ؟

ستتقد ثروتي وسيشتعل حبي
عندما تتكحّل عيناي برؤية باندهاري .

٦١

توصلت الى ادراك طبيعتك الحقيقية
فمن يستطيع ، بعد اليوم ، ان يحجبها عني ؟

قل لي : لماذا أثخنتني بالجراح ؟
لماذا فعلت هذا فقط ؟
الحرب بيننا ، بعد اليوم ، على أشدّها .

ابن حرام انت
ماجن ، مراء ، فاسق ، لا اصل لك ،

تلتهم الحجارة والارض والاشجار والحيوانات
شريد عارٍ
وحيد كغريب

عرفتك يا الهي حمارًا وكلباً وثورًا ذبيحاً

كانوا يدعونك ، في القديم ، كذاباً
واليومَ ادركتُ ان هذا اسمك الحقيقي .

قاتل مأجور انت
لقد أثرت غضبي
فلم يعد باستطاعتي ، بعد اليوم ، ان أسيطر على شفتيّ .

٦٢

فضّلتني على اخوتك الشباب
فاستغلّت شفتاي هذا الحب وشتمتك

وقلتُ ما لا يجب ان يقال
فتحمّلني :
هذا واجب عليك يا الهي .

الاهل يدللون طفلهم المعتوه
ويعطفون عليه ويحبونه اكثر من بقية اخوته .

لا تغضب عليّ يا الهي
يا امي ويا ابتِ .

٦٣

أنّى اذهب فانت رفيقي
تمسك بيدي وتقودني

عضدي الوحيد انت
وانا اسلك هذا الطريق ،
بجانبي انت
تحمل عني اعبائي

تسدد خطاي اذا ما ضللت طريقي .
حطمتَ العقبات التي تعترضني يا الهي
ودفعتني الى الامام .

الكائنات كلها
والناس جميعهم
اصبحوا اخوة لي احبة .

فرحك تغلغل الآن في اعماقي واحاطني
فاضحيت كولد يلهو في عيد .

٦٤

فيتهاي[١] امي
تدر لبن حبها في طراوة الظل الذي تفرشه فوقي ،

في حضنها أقبع
وعلى ثديها الصق شفتيّ واعبِ حتى أنتشي .

لبن نعـَمها الذي سفحته من اجلي كان غذاءً لجسدي
فاعاد لي هذا الطعام الإلهي الحياة .

الغبطة التي في قلبي تغرق المدى كله
وتطمو كما يطمو البحر .

---

(١) فيتهاي Vithaï : اسم الهة .

اذا كبا احدنا أو تاه
تألمت وقاست .
من كل حدب وصوب تحوّطني وتحميني ،

وهكذا تراني لا اعرف القلق
فانا طفل فيتهابي المدلل .

٦٥

لنا بقرة حلوب
« قرن الدر » اسمها
يضيق كوننا بالبانها

رداؤها ازرق قاتم
والعالم الواسع مرعاها

لم تضع بعد
ولكنها على استعداد لان تصبح اماً لأي كان
تفيض النعم على من يلامسها بيد واثقة

لبنها يجري غزيراً في اربع موجات جبارة
غذاء ساناكا[1] وبقية الكهان القديسين القدامى كان

ما قيمة جوعي بالنسبة اليها
وهي الام التي ترضع العوالم الثلاثة !

---

(١) ساناكا Sanaka : اسم احد القديسين .

ها قد أطل موسم السعادة
واقترب موعد معرض باندهاري
واجتمع الفايشنو ليبتاعوا اسم الاله .

اشتروا قدر ما تستطيعون ،
ولا تتركوا شيئاً ،
فقد أقبل المطر
وبلغ الحب أوجه
واستوت السماء والوجوه .

استلم بونداليك الشحنة المرسلة من مرفأ دفاركا
وابتاعها كلها
وكان ساناكا وغيره قد فعلوا ذلك قبله .

سعيدة وطوباوية هي الارض التي تتردد فيها اصداء اسم السيد ،
اذا استولى عليها من حكم عليهم بالهلاك الأبدي فانهم يصبحون أغنى
الناس .

لنغرف من هذا الخير الوفير بملء ايدينا
فلا احد يمنعنا
ولنوسّع قلوبنا
لنكدّس فيها ثروتنا الحقيقية .

يوزّعون الشحنة دون ان تنقص
ويبقى منها وسيبقى ابداً
الذين لم يأخذوا قضوا وايديهم فارغة .

٦٧

اسم اميري فيتهوبا حقل
فاذهب واعمل
فالعمل هناك مجّان

لا سخرة ولا ضرائب
لا وجبات طعام تُقدم
ولا من يصدر اوامر

ولا شريك لك في عملك
وانت سيد نفسك .

لا فائدة من الجهد المضني الذي تستلزمه اعمال الحراثة المتقابلة

ولا جدوى من مسلفة الوصايا الست ولا من اعادة سَلْف الطقوس

ولا طائل في محراث المعرفة الثلاثي المقاطع لنخد التلم كي نبذر الحب

ولا فائدة من بذر الاعمال الماضية
فالغلال تبيّض من تلقاء نفسها

ياما[1] ، سارق غلات الارض قبل حصادها ، لن يستطيع الاقتراب
ففيتهتهال ساهر ومعه مقلاعه :

الغلال لن تُنهب : لا شك في هذا
واذا كنت قلقاً غير متأكد فانت معتوه .

---

(١) ياما Yama : اله الموت .

موسم الحصاد في كل وقت وآن
لا تضيع من وقتك برهة .

ابيضّ موسم حب غزير
فلا هري يستطيع احتواءه ،

واذا تقاعست عن امتلاك هذا الموسم
فانك تستحق الجلد .

٦٨

اسم السيد عارشة كبيرة مكسوة بالازهار المتلألئة والثمار اللذيذة

فطِرْ اليها يا قلبي ، ايها العصفور الملكي ،
فستجد فيها غذاءك الكامل .

اي طعم لذيذ هو هذا ! منذ الحبة الاولى
فلا تتأخر يا قلبي وأشبع

فالوقت يمر سريعاً
والطعم والحلاوة يمضيان الى غير رجعة .

٦٩

اسم السيد باخرة اجتاز بها نهر العالم

ها أنذا فوقها
ارقص الآن عند اقدام القديسين .

اسم السيد جواد وسيف :
بفضله شققت طريقي في زحمة التقمّصات .

اسم السيد قوس ونبال :
رميت بنبلته عهد الحديد الذي ولّى فاخترقت ظهره .

لقد جعلني اسم السيد ، بسلطته ،
سيد هذا العالم ،

فها انا الآن الابن الحقيقي لفيتهتهال الطوباوي .

٧٠

اسمك جوهرة
انضدها حول عنقي وانا اردده .
حضورك المنظور سعادة متجددة ابداً .

ما يفيدني حضورك غير المنظور ؟
من يحبك لا يتمنى بعد ذلك الخلاص .

باستطاعتي ، وانت موجود ، ان اقدم لك قرباناً
وان اتلقى منك

ما معنى الجلوس الى المائدة اذا سُحبت الصحاف ؟

هبني ان لا اخشى بعد اليوم رحيلك
وقل لي ،
انت الذي تملأ العالم :
« لقد وهبتك ذاتي وسأبقى معك . »

٧١

يقف نارايانا قرب السرير الذي تمجّد عنده اسمه

وامام المذبح الذي تسبّح عليه اسمه
يترنح من الفرح

وفي المكان الذي تقف فيه وتجاهر باسمه
يرقص غوفين[١] بقوة وعنف

وعلى الطريق التي تسلك وانت تردد اسمه
تجده
امامك ووراءك
والصولجان في يده .

يصغي الى التسابيح التي تردد اسمه وكأنها السُكّر .
اسمه يجعله يقفز من الحب .

---

(١) غوفين : اسم اله .

٧٢

الصلاة التي تصعّدها للاسم هي ، في الحقيقة ، اسهل عمل خلاص تقوم به
لانها تحرق اخطاء حيواتك الماضية .

لا حاجة بك الى التنسك المضني
ولا الى العزلة في اعماق الغابات
فنارايانا يجد سعادته عندما يأتي الى منزلك .

اجلس أنّى كنت
وجمّع افكارك في الواحد الذي يضرع اليه حبك دائماً وابداً .

لا سبيل للخلاص بغير هذا العمل
فيتهوبا شاهد على ذلك

اذا كنت نبيهاً فالامر ولا أسهل
وبهذه الطريقة تحاول ان تشبع رغباتك .

٧٣

لقد افتتحت متجراً
وبضائعي تناسب رغباتك

اني قيّم صندوق الاله
اعطي وآخذ بقدر ما تتمنى .

راجعت حسابك
وعرفت ما لك وما عليك

ابيعك حسبما تدفع
بضائع جيدة او رديئة .

٧٤

الخنزير يتلذذ بالقاذورات
لا قيمة للحلوى عنده .
من يبغض الله يحب الكذب
لا قيمة لعذوبة الحقيقة عنده .

الكلب لا يفكّر الاّ بالعظام
حتى لو قدّمت له وجبة من طعام الآلهة .

اذا قدمت للافعى مخيضاً
بصقت السم الزعاف في وجهك .

٧٥

الحمار المُغطَّس في المياه المباركة
لا يستحيل ، نتيجة ذلك ، جواداً اصيلاً رائعاً ،

والفظ الذي يُقبل في عداد الراغبين في معرفة الاسرار الدينية
لا يخرج من تجربته وقد تطهّر فكره .

والافعى التي تعبّ الشراب المشبع بالسكر
لا تفقد سمّها الكامن في الاعماق

واذا ولغ الكلب طاس لبن
فانه لا يلبث ان يقيئه بعد ذلك .

٧٦

تقول في نفسك :
عندما اتحرر واتخلص من كل قلق
سأعتزل العالم
لأنصرف الى الصلاة .

ولكن الرغبة ستلاحقك
اذا بقيت في هذا العالم المضطرب
ستلاحقك دائماً كالكلب
وستمزّق كل حياتك ،

وستتحطّم في النهاية
ستتحطّم .
تعلقك بالعالم سيقضي عليك
وستقع مرة اخرى في حفرة عميقة
حفرة حياة جديدة .

جسدك ليس سوى مجموعة اوهام
اوهام تنغّص عليك راحتك
وتسومك العذاب
فتتألم في اعماق نفسك
وتتألم في تصرفاتك الخارجية
وتمر ايام حياتك الاربعة[١] كالبرق

وتنقضي الساعات الثمينة دون جدوى
فلا تستطيع ان تعوّضها بعد ذلك
ولو بذلت الثروات الطائلة .

هلم استيقظ
وتحكم بمصيرك
لئلا تتحسر وتتأوه :
يا ليت .

---

(١) ايام الحياة الاربعة هي : الطفولة والمراهقة والبلوغ والشيخوخة .

٧٧

الغذاء والمال يجب ان يُوزّعا على الكل
شرط ان نميّز بين شخص وآخر
البذور لا يجوز ان تُرمى الاّ حيث يمكن ان تتأصّل .

يأتون الشر وهم يريدون عمل الخير
يقدمون اللبن لكن للافاعي
يرتّلون الطلبات
لكن بكلمات فظة
يشترون الشقاء لأنفسهم .

من بعيد تبدو الارض موحدة الشكل
والواقع انها صفراء هنا وحمراء او سوداء هناك
وتختلف قيمتها اختلافاً بيّناً
فهي فقيرة جدباء هنا
وخصبة معطاء هناك .

وهكذا الامر بالنسبة لاعمالك :
فاذا اقترنت بالبصيرة كانت صالحة حقاً ،
اما اذا كانت تفتقر الى السكر
فهي حلوى
لا طعم لها ولا مذاق .

٧٨

الى ربّك تصعّد الصلوات
واذا ما طرق انسان بابك تجاهلته
صلاتك ، في هذه الحال ، كفر والحاد .

تمطر الهك ببتلات الزهر
فتشخن هامته
وكأنك ترجمه .

توصد بابك في وجه ضيف غير منتظر
وتولم لالهك وليمة طقسية .

اذا فرّقت بين الضيف والهك
فان طقسك بصاق .

٧٩

بالاله يرتبط عالمنا
حبه متغلغل في كل شيء .

كلما شددنا الحبل
كلما توحّدت اليافه .

لا تبصق على هذا العالم
وانظر كيف تختلط نفسك بنفوس الآخرين

وتنطبع افراحها وآلامها في قلبك
كما تنطبع افراحك وآلامك في قلبها
وفقاً للقانون نفسه .

وعندما يصبح نظرك بسيطاً بهذا القدر
سيضيء وجهك الجميع .

٨٠

جمّع افكارك المبعثرة
ولخّصها في ما يلي :
لا تعمل الاّ في سبيل سعادة الآخرين .

عبادة الله الحقيقية هي محبة الجميع
الحسد يجعلنا نتعب من الآخرين

ثِرْ على نفسك فقط
اما الآخرون فاعتبرهم اسيادك .

القداسة هي الاتحاد بروح الكل .

٨١

تحرق النار حبات الارز او السمسم التي تلقيها فيها قرباناً
ولكن ما عساها تفعل بعجين شهوتك واهوائك ؟

لماذا تجهد نفسك هكذا دون جدوى
وانت لا تعبد باندورانغ؟

من معرفة الاسفار المقدسة تستخلص الغطرسة والكبرياء

واذا تقشّفت وحججت ازدادت كبرياؤك اكثر فاكثر

واذا وزّعت مقتناك تكون قد راعيت انانيتك .

تقاعست عن القيام بما هو جوهري
ولم تأتِ الاّ الافعال الدنيوية الخالصة .

٨٢

اذا استطعت تلاوة بعض الآيات القديمة
حسبتَ انك اصبحت سيد العارفين
ولكنك ما زلت تجهل الجواب على هذا السؤال : « من انا ؟ »

وكحمار يحمل بردعته
تقلّب صفحات الكتب
دون ان تفقه ما حمّلها الحكماء من عميق المعاني

اما انا
فاني انتسب الى طبقة وضيعة
ولم اتصفّح الكتب

ولكن اعرف سيدي ، سيد باندهاري ،
واعرف انه الوحيد .

٨٣

الجسد هري الشقاء
ووعاء الامراض ،
كوخ عفن هو
دَنِس ، لا يجاريه في دنسه شيء .

الجسد قمة الجودة
ومجموعة سعادات
يساعد على اتمام كل شيء
وبه يتحد اللامتناهي السمو .

الجسد حفرة الاقذار
وشبكة الاوهام المجنونة
ملطّخ برمته بالظلمات
يغذي جذور الخطيئة .

الجسد والطهارة ذاتها
كنز الكنوز هو
فيه تنحلّ الارتباطات بالعالم
وفيه يجد الاله غبطته .

الجسد عقدة الجهالات
ومزيج العيوب
ومرتع الآلام اللامتناهية ،
خالٍ من اية مزية هو .

لا تؤمّن سعادة جسدك وانت تشبع رغباته
ولا تسبب شقاءه وانت تكبتها جميعاً
فالجسد لا صالح هو ولا طالح
فاذهب اذاً بسرعة واعبد السيد .

٨٤

اذا اردت القيام بزيارة ما
فزُر القديسين
ولا تفكّر في مشاغل اخرى

فهم ينشدون كنزاً واحداً : الله
وشفاههم لا تتمتم بغير اسمه .

واذا رغبت في اصدقاء
فأختر القديسين
ولا تفكّر في أية صداقة أخرى .

واذا اردت الجلوس
فاجلس بين القديسين
ولا تفكّر في أية راحة اخرى ،

واذا اردت السير
فاذهب الى قرية القديسين
فانهم سيهبونك السلام .

القديسون محيط من السعادة
سيمنحونك ثروات طائلة .

٨٥

الإله يحب هذا الحبّ الكلي
الذي يخلّصك من وهم الدورة الكونية .

قانون أزلي وضعك ها هنا .
فابقَ حيث انت
فستلقى نفسك الراحة .

عن القلق لا ينشأ غير الشقاء :
انك تستحق ان تكون الانسان الذي انت .

سألقي بحملي فوق كاهل الإله
وسأقدم ماضيّ الثقيل
قرباناً عند قدميه .

٨٦

ليكن إلهَك الوحيد
لا سعادة لك بدونه

اما الآلهة الاخرى فأوهام
عنها ينشأ الشقاء
ولا تعرف ابداً ان تضع حداً له .

آمن بهذا الذي لا يُحطّم
واتخذه إلهاً لك
وسلّم نفسك بشوق مجنون الى غوفين

وعند ذاك لن تموت سوى مرة واحدة
وسيحيا اسمك في المجد .

٨٧

أما زلت بحاجة الى آخر ؟
وانت الكل عندي
وانت الوحيد .

ها قد وضعت عند قدميك
جسدي وافكاري واقوالي
ولم يعد لدي الآن شيء يا الهي .

الى اية صخرة استطيع ان اتوجّه بايماني ؟
وامام من غيرك استطيع ان القي رحالي وارتاح ؟

في كل حصاة أراك .
لقد تحررت روحي من القلق العميق .

هل يغسل الماءَ ماءٌ ؟
هل تستطيع المياه المقدسة محو ماء خطيئتي ؟

الرغبة هي التي تقرر ما يتوجب علينا اداؤه خلال التقمصات تكفيرًا :
لقد قدمت لك جذور رغبتي ،
وكنتَ جوهر اجدادي
فلماذا ازعج نفسي اذًا واقدم لهم القرابين ؟

حياتي وضعتها بين يديك
وكأنها كتلة من الأرزّ والقمح الذي يُقدّم قرباناً للاموات
فتحررت روحي من القلق .

٨٨

لأكن يا سيدي حصاة صغيرة
او حجرًا كبيرًا
او غبارًا على طريق باندهاربور
لتدوسني اقدام القديسين .

ما استطيع ان اطلب اليك غير ذلك ؟
هذه هي السعادة الدائمة التي لا خوف من زوالها .

لأكن يا سيدي
قبقاباً او صندلاً
في اقدام القديسين .
لأكن هرّهم وخنزيرهم وكلبهم
فأبقى الى جانبهم اقتات بفضلاتهم .

لأكن يا سيدي درجة السلم الذي يهبط الى البئر
او الجدول
او النهر
لتطأني اقدام القديسين .

هبني هذه النعمة يا سيدي
فأهزأ بالتقمصات .

٨٩

عندما أراك امامي تتسمّر عيناي فيك
فلا استطيع ان اشيح بنظري عنك .

افكاري ملقاة عند قدميك يا ملك باندهاري
تتشبث بها بقوة وعنف

اختلط بك كما يختلط الماء بالملح
ولا يستطيع الواحد منا ان يكون دون الآخر .

حياتي وضعتها عند قدميك قرباناً .

٩٠

الاله المتزين بالاقراط
هو وحده
امتلك قلبي .
لا اعبد
ولا اخدم
الهاً سواه .

لا ينقصني
وانا عند قدميه شيء .
من سواه استطيع ان ارجو ؟

لا اسمع سوى اسمه
ولا اترنم بغير اسمه .
فيتهتهال حبيبي
وهو الوحيد عندي .

اين اذهب اذا غادرت باندهاري ؟
احدّق في وجهه ولا ارتوي .

لا اشتهي الخلاص .
ما همني ان آتي واذهب في الدورة الكونية ؟

لقد ادركتُ
ان الاله المتزين بالاقراط
هو كل شيء بالنسبة لروحي .

٩١

اصغِ الى رجائي يا باندورانغ :
لا تمنّ عليّ بالخلاص الآن .

امنحني يا الهي ،
بدلاً عن ذلك ،
ان اتقمّص مرات اخرى
استطيع خلالها
ان اعبد قدميك .

وتستطيع شفتاي
ان تتغنيا بمجدك
واستطيع ان ارقص امامك ابداً .

دعني اتقمّص كناساً
او خادماً

او شحاذاً
ولكن
ضعني في فناء دارك .

جميل عالم الاموات هذا
جميل في نظري
اذا كنت في خدمتك يا باندورانغ .

٩٢

اقوالي لآلئ
أتبرج بها
كي أعبد المغذّي .

ايماني هو الغذاء
منه اعددت طعاماً
لاشبع نارايانا .

حياتي ماء التطهير الذي سكبته على يديه
وفكري الشراب اللذيذ الذي به مسحت فمه ،

حواسي المذهولة نبتة الفلفل الطرية
بها لففت قطعة الفلفل والجوز المخصصة له ،
بالتولسي توّجت جبهته ،

احبه دون سواه ،
وحبي له هو القنديل الذي اعددت
لأضيء ليله ،
وجسدي وسادة
يضجع عليها عند رقاده .

هكذا يحتفل توكا بشعائره الصامتة ،
لقد فتح
لهجعة الاله
غرفة قلبه الكبيرة .

٩٣

اعمى ولدت ، لا أرى احداً
رتيبَ الوجه لا اقوى حراكاً
اقيم ها هنا
حيث تلاشى « انا » و « لي » .
المرئي عند الآخرين
لا منظور عندي .

من العدم تحررت
سعادتي رقاد على قمة الجبل
حيث آخذ ولا اعطي شيئاً .

تركت اناء الشهوات الصالحة والسيئة يتحطم
وتركت الدورة الصاخبة ، دورة قواي الثلاث
فتلقيت عندئذ تأكيداً :
لن استعطي بعد اليوم .
وازفت الساعة الخامسة والعشرون
فحققت جميع آمالي .

ورفعت وجهي
اتمتم دون انقطاع
هاتين الكلمتين : « انا » « هو »
فايقظت الكلمتان من لا وجه له
وجعلتْ الواهب يجن غراماً
فتصدّق عليّ
ووهبني معرفة لذاته وكيانه ،
فها انا غائص في طبيعته
لا يميّزه عني سوى الاسم .

سأهبها بدوري لمن يأتي اليّ ،
هاتان الكلمتان هما الطريق الذي سلكه القديسون دائماً
فنجوا
ونجا كثيرون غيرهم
بفعل هذا الايمان .

الايمان الكامل المطلق هو الامر الجوهري الوحيد
اما العقل فقاطع طريق يسلبنا ونحن في الطريق

فاقطع الروابط التي تشدّك الى العالم
وكن مخلصاً لهذا الايمان الوحيد .
هذه هي الطريق التي اختطها القديسون الاسلاف .

٩٤

يا اشجار الخيس
ايتها العصافير البرية
يا اصدقائي
يا من تغنّون لي
اذا بقيت في عزلتي
فعزلتي بينكم تصبح لذة
ولا تلحق بي خطيئة او ثواب .

خيمتي الفضاء
وسريري الارض حيث يرتاح قلبي المتحرر .

تغطي جسدي وزرة
وتروي غليلي قرعة يابسة
وتحصي الريح ساعاتي .

أعدّ بنفسي اطباقي المختارة :
طعامي ايماءة السيد[1]
وعقبتي الصلاة الليلية .

---

(١) ايماءة السيد : Geste du Seigneur : تعني قراءة الكتب الاسطورية التي تروي اعمال الاله السامية خلال فترات هبوطه .

قلبي يجهل الوحشة :
يسائل ذاته ويجيب

٩٥

اري آثارك في كل مكان
كل الكل مليء بك
الشكل والنوع والاسم ،
الكل يشبهك
آه يا لون السحاب
اذا تواريت انت فماذا يبقى ؟

الارض التي اتمرّغ عليها قاعدتك
كل يوم مبارك
كل برهة مباركة
حبك يغمر ابداً قلبي

تتغلغل فيّ يا الهي ،
تتغلغل من كل جهة
فأهمل الدنيويات
الآمال والمشاغل .
اين اذهب ؟
وما اصنع ؟
اسمك ابداً على شفتيّ وفي قلبي .

الكلام عنك حديثي الوحيد :
اسماؤك
وايماءاتك
ومجدك .
الارز والثمار والفلفل التي آكل
قرابين مقدسة ارفعها اليك .
مسيرتي تطواف حولك
ورقادي سجود امامك .
وجهك : كل ما ارى
صوتك : كل ما اسمع .

المستنقع والجدول والينبوع : كلها مقدسة
كل مياه هي الغانج
القصور والصروح والبيوت والاكواخ والأخصاص : كلها معبدك
كل كلام يوحي إلي باسمك .

سعادة الحب تغمرنا ابداً
نحن خدم السيد .

٩٦

سأقول ما يعجز اللسان عن قوله :
اني احيا موتي ،
وجودي ان لا اكون .

التمتع زهدي
والرغبة تُبعدني
ما زلت احمل من ذاك وهذه الآثار المندثرة .

انا لستُ كما تراني
اسأل عن ذلك باندورانغ !

٩٧

تهبط من عليائك يا الهي
وتتجسد في شكل
اما انا
انا المتعبّد
فاتوالد ابداً :
كلانا يسعى وراء الاتحاد .

فرحي جسدك
وافراحك وجودي

اهبك وجهاً
فتجعلني لامتناهياً

نحن الاثنان جسد واحد
كائن جديد وُلد : الانت ـ انا والانا ـ أنت

لا فرق بيننا بعد اليوم
فانا انت وانت توكا .

الجزءُ الثاني

البوذيّة

البُوذيّة

نشأتها

قبل المسيح بخمسة قرون تقريباً ، وفي المنطقة نفسها التي ظهرت فيها الفيدية — حوض نهر الغانج — اجتمعت ، حول معلم يدعى البوذا ، جماعة من الكهان الشحاذين المستعطين ، ما لبثت ان آمنت بتعاليمه فتبعته ، تماماً كما ستفعل بعد ذلك بعدة قرون ، تلك الجماعات التائهة التي تحلّقت حول معلم آخر هو المسيح وآمنت به فطافت الجليل تبشر بتعاليمه وعقيدته .

مصادرها

قبل المسيح بستة قرون تقريباً عصفت بالحضارات القائمة مطامح جديدة فظهرت الزرادشتية في ايران والتاويّة في الصين والفيثاغورية في اليونان ، وانكفأت الحياة الروحية ، من جراء ذلك ، الى الداخل فانصرفت النفس الى تأمل ذاتها تأملاً أعمق مهملة علاقات المحبة او الارتهان او الاستعباد التي كانت تربطها بكائنات خارجية متفوقة . وهكذا فقدت العبادة قيمتها الاولية وتضاءلت بالتالي سلطة الكاهن وبرز تيار جديد ينادي بان على كل انسان ان يقوم بنفسه بالبحث عن القداسة في ذاته وبالجهاد النفسي الداخلي للوصول الى الخلاص .

هذه النظرة الجديدة ليست غريبة عن البرهمانية ، عن مرحلتها الهندوسية بشكل خاص ، ولذا نميل الى القول بان اعتماد البوذية لها دليل على تأثر البوذا بالبرهمانية . ان دراسة هذه الاخيرة ومقارنتها بالبوذية لا تتركان مجالاً للشك في ان البوذا قد تأثر بجميع ابعاد الثقافة الهندية التي سبقته، وبانه كان مطلعاً على تعاليم الفيدية وتأملات الاوبانيشاد ، وبانه انطلق ، الى حد بعيد ، من المفهوم البرهماني المتشائم للحياة ومن الاعتقاد القائل بان الكائن البشري مربوط الى الابد بسلسلة

الولادات والموت. ولقد كان للتقشف الهندي ولنظرية التقمص ولهذا القرف من الحياة والوجود ــ القرف الناشئ عن التوالد اللانهائي المشوب بالعذاب والشقاء ــ اثر عميق في محاولة البوذا رسم الطريق الى الخلاص والتحرر.

ماهيتها

اختلفت الآراء وتضاربت حول ماهية البوذية وطبيعتها، هل هي مذهب فلسفي ام نظام اخلاقي ام دين ام حركة اجتماعية؟

من خصائص البوذية ان مؤسسها البوذا ليس، بالنسبة لاتباعه، سوى مجرد انسان، ولكنه انسان يمتاز عن غيره بادراكه وتفهمه وحكمته وقوة تأمله وبلوغه المعرفة الكاملة، وقوة البوذا نابعة من ذاته وكامنة في ذاته، وخلاصه مرتبط به وليس بكائن آخر.

واذا بدت البوذية لبعضهم كمذهب فلسفي ونظرية للمعرفة فلأن مبدعها كان، قبل كل شيء، عقلاً كبيراً واضحاً استطاع، بفضل قدرة التعمق التي امتاز بها، ان يدرك جوهر الاشياء وان يكتشف سبب الشر وان يجد العلاج الشافي للألم. انه حكيم بمعناه الاغريقي: يعرف ويدرك حقيقة الامور.

واذا وجد بعضهم الآخر في البوذية نظاماً اخلاقياً وطريقة علمية للمعالجة النفسية فلأن البوذا ــ وقد اثبت انه من افضل المرشدين والاطباء النفسانيين ــ لم يرض، وقد توصل الى المعرفة الكاملة، ان يحتفظ بها لنفسه بل دفعته محبته لبني جنسه وعطفه عليهم الى ان يضيء امامهم الطريق ويهديهم سواء السبيل ولو كلفه ذلك مشقة وتضحيات.

واذا اعتبر بعضهم ان البوذية دين فلأن مؤسسها هو اكثر من حكيم ومعلم ومرشد، انه كائن مختار وبطل من ابطال الارادة النادرين وقديس من قديسي الفكر لا يربطه باتباعه رباط الانقياد الاعمى بل رباط الحب والاحترام. واذا لم يكن البوذا الهاً، كما هو الامر بالنسبة للديانات الاخرى، فيكفيه ان جوهر الاشياء قد اتضح بفضله، وان عقدة الارتباطات الارضية قد انحلت بواسطته. لقد كان البوذا اول من نادى بالمساواة الدينية، وبان القداسة ليست وقفاً على الكهان، وبان باستطاعة اي كائن ان يطمح اليها، وبذلك خلق اول ديانة عالمية شاملة يسهم فيها الجميع دونما تمييز او تفريق.

واذا نظر بعضهم الى البوذية كحركة اجتماعية اصلاحية فلأن احد الاسباب التي حملت البوذا على التبشير بتعاليمه هو رغبته في اصلاح البيئة التي كان يعيش فيها وفي تحطيم سلطة الكهان البرهمانيين المطلقة الذين لم يتورعوا، منذ الفيدية ، عن جعل الدين مورد رزق لهم وميداناً مقفلاً لا ينازعهم عليه منازع ، والذين حاربوا كل دعوة اصلاحية متحررة ، والذين افرغوا روح الدين في قوالب سحرية وصيغ خرافية امتصتها وقضت عليها في النهاية . وهكذا نجد ان البوذية تنطلق من حاجة اجتماعية وترتبط بعاطفة ونظرة اخلاقيتين ودينيتين اكثر صفاءً وسمواً .

تعاليم البوذا

لم يكتب البوذا اي شيء ، تماماً كسقراط والمسيح ، واكتفى بالقاء الخطب والمواعظ والارشادات، ولكن تلاميذه تناقلوا تعاليمه ثم ما لبثوا بعد ذلك ان دونوها. والبوذا هو الوحيد الذي لم يدّع الالوهية ولم يقل بانه يتلقى الوحي من اعلى ، وقد اكد في جميع محاوراته ان الانسان سيد نفسه ومصيره وان لا وجود لكائن اسمى منه ولا لقوة فوقه وانه مسؤول عن خلاصه وهلاكه . وهذه المسؤولية الفردية نابعة من مفهوم واسع للحرية الفكرية لا وجود له في اية ديانة اخرى . هذه الحرية ضرورية لأن خلاص الانسان وتحرره وقف على ادراكه الحقيقة بنفسه لا على نعمة يمنحها الاله او اية قوة خارجية اخرى كمكافأة له على طاعته او سلوكه .

كذلك تخالف البوذية الديانات الاخرى في نظرتها الى الشك ، فهي لا تعتبره خطيئة لانها لا تنص على اية عقيدة محددة يجب أن يؤمن بها من يعتنقها . يقول بوذا : « عندما تدركون بأنفسكم ان هذه الامور حسنة وصالحة فاقبلوها واتبعوها وعندما تدركون بانفسكم ان الامور الاخرى سيئة وطالحة فارفضوها وتجنبوها . » وهذه النظرة الى الشك نابعة من ان البوذية ، بخلاف الديانات الاخرى ، لا تقوم على الايمان الاعمى بتعاليم ما ورائية بل على الملاحظة والفهم والادراك .

كذلك تعلم البوذية التسامح وتقول بمبدأ اللاعنف ، وقد كان من نتيجة ذلك ان تاريخ انتشارها خلو من الاضطهاد ومن اية نقطة دم اهرقت للتبشير بها .

ويعتبر البوذا ان الجهل سبب الشر وان الخلاص رهن بشرطين هما الذكاء

والمعرفة ، وان كل شيء باطل ، وان المثل الاعلى لا يقوم على خنق المشاعر بل على تطوير العاطفة الروحانية التي يحس بها الانسان تطويرًا كاملاً ، وان علينا ان نعرض عن مقتنيات هذا العالم الباطلة وان نتخطى ذاتنا وان ينتصر فينا العقل انتصارًا كاملاً ومطلقاً .

ولم يتعرض البوذا للمعضلات المتعلقة بخلود العالم والنفس وغيرها من المواضيع الماورائية لانها، على حد قوله ، لا تفيد، ولانها غير مرتبطة بحياة القداسة وبالحياة الروحية، ولانها لا تقود الى التحرر والطمأنينة وتحقيق النيرفانا تحقيقاً كاملاً .

ومن تعاليمه : « باللطف ننتصر على الغضب ، وبالخير ننتصر على الشر ، وبالكرم ننتصر على البخل ، وبالصدق ننتصر على الكذب . »

لقد كانت حياة البوذا ، بذكائه المتوقد السامي وبسيطرته المطلقة على قواه وبحبه الكبير للعالم وبرأفته اللامتناهية ببني جنسه ، رائعة خاشعة ائتلف فيها فكره وارادته وقلبه . لقد انطلق من اليأس والخيبة فابتدع عقيدة من الجهاد والبطولة وملحمة خالدة من الكمال والسيطرة على الذات وتوصل بهذا الى قمة روعته واسس دينا تخطى حدود الهند وغزا الشرق الاقصى بكامله .

المصادر

ان القسم الأول من هذا الجزء ، وهو يتضمن بعض المختارات البوذية ، نقل الى العربية عن ترجمة الاستاذ ا. فوشيه A. Foucher لكتاب اولدنبرغ *Oldenberg* عن البوذا، وعن ترجمة الاستاذ جورج غريم Georg Grimm في كتابيه :

La religion du Boudha. Paris, A. Maisonneuve, 1944.

La Sagesse du Boudha. Paris, P. Geuthner, 1931.

وجميع هذه المختارات واردة في كتاب *Littérature Religieuse* الذي نشر باشراف الاستاذين جوزف شين ورينه كروسيه .

اما القسم الثاني ، والذي يبدأ بـ« عجلة القانون (خطاب بوذا الاول) » وينتهي بـ« اقوال الحقيقة » فقد نقل الى العربية عن ترجمة فرنسية لكتاب والبولا راهولا «L'enseignement du Boudha», *Walpola Rahula.* Éditions du Seuil.

١ ـ الولادة والشيخوخة والموت

لو لم يكن في العالم ، يا ابنائي ، ثلاثة امور لما ظهر التاتاغاتا[١] ، القديس والبوذا السامي ، ولما اشرقت على هذا العالم العقيدة والنظام الذين بشّر بهما التاتاغاتا .

ـ ما هي هذه الامور الثلاثة ؟

ـ انها الولادة والشيخوخة والموت .

(صفحة ١٤٤ الجزء الخامس Anguttara Nikâya)

٢ ـ حتمية الهلاك

هناك امور خمسة لا يستطيع مارا[٢] ولا برهمان ولا اي سراماتا[٣] او برهمي او اله او كائن في هذا العالم ان يفعلها .

ـ ما هي هذه الامور الخمسة ؟

ـ ان لا يدع الشيخوخة تدب في من هو عرضة للشيخوخة ، وان لا يدع المرض يفتك بمن هو عرضة للمرض ، وان لا يدع الموت يقضي على من هو فريسة للموت ، وان لا يدع الخراب يحل بما هو عرضة للخراب ، وان لا يدع الصيرورة تنتــاب من هو عرضة للصيرورة . هذا ما لا يستطيع ان يفعله مارا ولا برهمان ولا اي سرامانا او برهمي او اله او كائن في هذا العالم .

(صفحة ٦٠ الجزء الثالث Anguttara Nikâya)

---

(١) التاتاغا Tathâgata : احد اسماء بوذا .

(٢) مارا Mâra : الشيطان ، وهو يجسد الشر .

(٣) سرامانا Samana : القديس الناسك ، رجل الدين البوذي .

٣ ـ الفرح والالم واللامبالاة

علمتكم ان هناك ثلاثة انواع من الاحاسيس : الفرح والألم والاحساس الذي ليس بفرح ولا بألم . وعلمتكم ، بالاضافة الى ذلك، ان كل ما نحس به مرتبط بالألم . لكني لم اقل لكم هذا الاّ بعد ان لاحظت التقلب الذي ينتاب استعدادات الجهاز العقلي والجسدي، على اعتبار ان هذه الاستعدادات او النزعات عرضة للعدم والزوال وصائرة الى الفناء وخاضعة لمبدأ التغيّر والتقلّب، وان الفرح يخبو في احضانها .

(صفحة ٢١٦ الجزء الرابع Samyutta Nikâya)

٤ ـ الذات واللاذات

اللاثابت ألم والألم لا ذات . وما هو لا ذات ليس لي ، ليس ذاتي ولسته انا .

(صفحة ١ ، الجزء الرابع Samyutta Nikâya)

— ما هي ، برأيكم ايها الكهّان ، طبيعة الجسماني ؟ أثابتة هي ام غير ثابتة ؟

— غير ثابتة ، ايها السيد .

— ولكن ، هل اللاثابت ألم ام لذة ؟

— انه الم ايها السيد .

— هل نستطيع إذاً القول ، بعد ان اعتبرنا ان اللاثابت مليء

بالألم وانه عرضة للتغيّر ، ان هذا اللاثابت لي ، واني غير ثابت ، وان هذا هو ذاتي ؟

— كلا يا سيد .

— وماذا تقولون ، ايها الكهان ، عن الحواس (وعن التصورات والتكوينات والمعرفة) أثابتة هي ام غير ثابتة ؟

— انها غير ثابتة ايها السيد .

— ولكن هل اللاثابت ألم ام لذة ؟

— انه ألم يا سيد .

— هل نستطيع القول اذاً ، وقد اعتبرنا ان اللاثابت مليء بالألم وانه عرضة للتغيّر ، ان هذا اللاثابت لي ، وانني لا ثابت ، وان هذا هو ذاتي ؟

— كلا يا سيد .

— بناء عليه اعلموا ، ايها الكهان ، انه ، فيما يتعلق بطبيعة الجسماني (وفيما يتعلق ايضاً بالحواس والتصورات والتكوينات والمعرفة) ، اعلموا ان كل ما لم يكن منها وكل ما هو كائن وكل ما سيكون ليس ذاتي وانا لسته وانه لا ذاتي ، أكان هذا في داخلنا ام في العالم الخارجي ، اكان ذلك قوياً او ضعيفاً، حقيراً او سامياً، بعيداً او قريباً . هذا ما يجب ان يدركه حقيقةً كل من يملك العلم الحقيقي .

ايها الكهان،

ان من ينظر الى الامور هذه النظرة هو حكيم ومستمع نبيل للكلام السامي : انه يهمل طبيعة الجسماني والحواس والتصورات والتكوينات والمعرفة ، وفي اهماله لها يتحرر من الشهوة ، وبتحرره من الشهوة يبلغ الخلاص . وتستيقظ في الناجي معرفة خلاصه وتتلاشى

الولادة الثانية وتكتمل القداسة ويتم الواجب ، ولا يعود الرجوع الى هذا العالم وارداً بالنسبة اليه : هذه هي الحقيقة التي يدركها .

(Mahâvagga, 1,6 صفحة ٣٨ وما يلي)

٥ ـ سلسلة الاسباب الاثني عشر

من الجهل تتولد الميول ومن الميول يتولد الوعي ومن الوعي تتولد الاسماء والاشكال (اي الفردانية الروحية والمادية) ومن الاسماء والاشكال تأتي الحواس الست ، ومن الحواس الست ينشأ الاحتكاك ومن الاحتكاك يأتي الاحساس ومن الاحساس تنشأ الرغبة ومن الرغبة ينشأ التعلق ومن التعلق تأتي الصيرورة ، ومن الصيرورة تنشأ الولادة ومن الولادة تنشأ الشيخوخة والموت والالم والشكوى والوجع والحزن واليأس . هذا هو اصل كل امبراطورية الالم .

ولكن الشهوة تزول اذا قضينا على الجهل، والقضاء على الجهل يستلزم القضاء على الميول قضاءً مبرماً . واذا زالت الميول زال الوعي وبزوال الوعي تزول الاسماء والاشكال ، وبزوال الاسماء والاشكال تزول الحواس الست وبزوال الحواس الست يزول الاحتكاك، وبزوال الاحتكاك يزول الاحساس ، وبزوال الاحساس تزول الرغبة ، وبزوال الرغبة يزول التعلق ، وبزوال التعلق تزول الصيرورة وبزوال الصيرورة تزول الولادة ، وبزوال الولادة تزول الشيخوخة والموت والالم والشكوى والوجع والحزن واليأس . وهذا هو القضاء على امبراطورية الألم بكاملها .

(Samyutta Nikâya, 11 صفحة ٧ — Dîgha Nikâya, 314)

٦ ـ تحديد الجهل[1]

الجهل ، يا صديقي ، هو عدم معرفة الألم واصله ، وعدم معرفة القضاء عليه ، وعدم معرفة الطريق الذي يقود الى القضاء عليه .

(Majjhima Nikâya, I ٥٤ صفحة)

٧ ـ لا وجود الاشياء[2]

العاديون والجهلة ، الذين لم يتلقّوا التعليم الصحيح ، يعتقدون ، وهم غارقون في لجة علاقاتهم بالاشياء ، ان هذه الاشياء موجودة وفق تصورهم . ولكن اعلم يا ساريبوترا ان هذه الاشياء غير موجودة بالشكل الذي يتصوره هؤلاء الناس .

ــ كيف توجد هذه الاشياء اذاً يا سيد ؟

فاجابه بوذا عندئذ قائلاً : « إنها لا توجد ، يا ساريبوترا ، الاّ بقدر ما لا وجود لها في الحقيقة . وبقدر ما لا وجود لها ندعوها افيديا اي اللامعرفة . العاديون والجهلة ، الذين لم يتلقوا التعليم الصحيح ، يتعلقون بهذه الاشياء ويتصورون ان كل شيء موجود في حين انه لا وجود ، في الواقع ، لأي شيء .

(Prajnâpâramitâ)

---

(١) الجهل بالنسبة للبوذا هو جهل الحقائق المقدسة الاربع التي اعلنها في خطابه في بيناريس .

(٢) الاشياء ليست كما تظهر ، الانسان الجاهل يحسبها كذلك ولكنها ليست في الحقيقة سوى مايا Mâyâ أي اوهام . والصورة التي لنا عن العالم نتيجة ادراك حواسنا ، بيد ان حواسنا الفانية ليست من عالم « الأنا » الحقيقي والخالد ، وادراكها ليس سوى اوهام .

٨ ـ الفكر يخلق الصيرورة[1]

يصادف ، يا اعزائي ، ان تخطر على بال احد الكهنة المؤمنين ، المعروفين بالاستقامة ، المطلعين على تعاليم العقيدة ، والمشهورين بالزهد والحكمة ، الفكرة التالية : « هل استطيع عندما اموت وينحل جسدي ان اقع ، في ولادتي الثانية ، على قصر امير ثري ، فيكون من نصيبي ان اولد فيه ؟ » . تراود عقله هذه الافكار فيقف عندها ويغذّيها . وتقوده هذه النزعات وهذه الاستعدادات الداخلية التي غذّاها وشجّعها بهذا الشكل الى ان يولد مرة ثانية على الوجه الذي اشتهى . هذا هو ، يا اعزائي ، البلوغ وهذا هو الطريق الذي يقود الى ولادة ثانية في وجود كهذا .

(Majjhima Nikâya, 120)

٩ ـ تعريف الوعي

الوعي يفوق الحصر ويضيء كل شيء ، لامتناه هو ، لا مكان فيه لماء او تراب او نار او هواء ؛ فيه الكبر والصغر ، الضعف والقوة ، الجمال والقبح ، وعنده تنتفي الاسماء والاجسام .

(Dîgha Nikâya, 1, ٢٣٣ صفحة Keveddha Sutta.)

(١) نجد في هذه المقالة مظهرًا من نظرية كارما Karma التي تعتبر ان الاعمال والافعال تحدد المصير المقبل .

١٠ ـ من الحواس تتولد الرغبة[١]

تبرز الرغبة عن طريق حاسة النظر وحاسة السمع وحاسة الشم وحاسة الذوق وحاسة اللمس وحاسة الفكر ، وتستقر فيها .

وتبرز الرغبة عن طريق الاشياء التي نراها ونسمعها ونشمها ونذوقها ونلمسها ونحفظها في فكرنا ، وتستقر فيها .

وتبرز الرغبة بواسطة الافكار الناشئة عن نظرة او صوت او طعم او لمس او تصور فكري ، وفيها تستقر .

وتبرز الرغبة عن طريق كل ما يثير النظر والسمع والشم والذوق واللمس والاحساس الناجم عن الفكر ، وفيه تستقر .

وتبرز الرغبة بسبب ادراك الاشياء المنظورة والمسموعة والملموسة والاشياء ذات الرائحة والطعم وتلك التي يحتفظ بها الفكر ، كما وانها تستقر فيها .

وتبرز الرغبة بواسطة النزعات التي تقويها الاشياء المنظورة والمسموعة وتلك التي نستطيع ان نشمّها ونتذوقها ونلمسها او نحفظها في فكرنا ، كما وانها تستقر فيها .

ان هذه النزعات محببة الينا ولها عندنا قيمة غالية .

ان الطمع او الاهتمام او المناقشات بشأن ما يمكن ان يكون موضوع نظر وسمع وشم وذائقة ولمس وتفكير هي امور العالم التي نتمسّك بها ونستحسنها ، وبواسطتها تبرز الرغبة ، وفيها تستقر .

(Dîgha Nikâya, 22 — Mahâsatipatthâna Sutta)

---

(١) يبرز هذا المقطع دور الحواس ، فهي ، بخلقها الاحاسيس ، تخلق الرغبة .

١١ ـ الرغبة تولد الحياة والحياة تولد الرغبة

تتمتع الرغبة ، في الحقيقة ، بقدرة على اعادة الخلق ، كما وان الطمع والصفح يلازمانها لذاتها ، وهي تفتش هنا وهناك عن ما تشفي به غليلها وتقنع . هذه الرغبة هي شهوة الحواس والخلود والمقتنيات المادية .

ـ ولكن اين تولد هذه الشهوة واين تقيم ؟

ـ تولد وتقيم وتكمن في جميع المقتنيات المادية التي نتمسّك بها ونستحسنها .

(Dîgha Nikâya, 22 — Mahâsatipatthâna Sutta)

١٢ ـ الرغبة اصل الالم

وكما ان الشجرة المقطوعة ، التي تبقى جذورها سليمة ، تعود فتنبت مرة اخرى بقوة وزخم ، كذلك فان الالم يبرز دائماً من جديد اذا لم نقضِ على شهوة التعطش .

(Dhammapada, 338)

١٣ ـ الحياة صيرورة دائمة

ايها الملك الكبير[1] اذا اضاء احدهم نوراً ألا يبقى هذا النور مشتعلاً طوال الليل ؟

---

(١) المقصود هنا بالملك الكبير الملك ميليندا (Milinda) اي الملك الهندوسي ـ الاغريقي ميناندر (Menandre) .

— بلى يا سيد انه يبقى مشتعلاً طوال الليل .

— لكن هل الشعلة التي تتوهج في الهجعة الاولى من الليل شبيهة ، ايها الملك الكبير ، بتلك التي تضطرم خلال الهجعة الثانية ؟

— لا يا سيد .

— وهل الضوء المتلألئ اثناء الهجعة الثانية شبيه بذاك المنبعث اثناء الهجعة الثالثة والاخيرة ؟

— لا يا سيدي .

— ما السبب في ذلك اذاً ، ايها الملك الكبير ؟ هل لهب الهجيع الاول يختلف عن لهب الهجيع الثاني ؟ وهل لهب الهجع الثالث شيء آخر ؟

— لا ياسيدي ، لقد اشتعل هذا اللهب طوال الليل منبعثاً من مصدر واحد .

— هكذا تُطبق ايضاً ، ايها الملك الكبير ، سلسلة عناصر الكائن : واحد يولد وآخر يموت : تقفل الحلقة دونما بداية او نهاية . ولذا فان الكائن الذي يبلغ المرحلة الاخيرة من المعرفة ليس نفس الكائن ، ولا كائناً آخراً .

(milindapañha ٤٠ صفحة)

١٤ ـ علينا ان نعتزل الحياة

قف سداً منيعاً في وجه تيار الوجود الجارف وابعد عنك كل لذة. ان الذي ادرك نهاية كل ما هو صائر الى الفناء يعرف اللامخلوق .

(Dhammapada 383)

١٥ ـ الخلاص هدف سامٍ

وكما ان البحر الفسيح لا يشتمل ، ايها الاعزاء ، الاّ على طعم واحد هو طعم الملح كذلك فان هذه العقيدة وهذا النظام لا يشتملان الاّ على ذائقة واحدة هي ذائقة الخلاص .

(Cullavagga, 9,1,4)

١٦ ـ تأمل الباطل المطلق

ايها الاعزاء

ان الشعور باللذة ينشأ عند الكاهن الذي يحترس من نفسه ، ويسيطر على وجدانه ، ويثابر ، دون ان يثنيه عن ذلك امر ، على بذل الجهود القوية ، وعلى العمل لاصلاح ذاته ؛ وعند ذاك يدرك الحقيقة التالية : « لقد نشأ عندي احساس باللذة ، وكان ذلك لعلة محددة وسبب معيّن . فاين يقع هذا السبب ؟ انه يكمن في جسدي . ولكن جسدي متقلّب متغيّر كوّنته علل معينة كانت السبب في نشوئه . فكيف يكون هذا الاحساس باللذة ثابتاً وهو الذي يعود باصله الى هذا الجسد المتقلب الذي كانت العلل سبب تكوينه ونشوئه ؟

وكما ينصرف هذا الكاهن الى تأمل التغيّر والعطب والزوال والانفصال والانقطاع والزهد التي يتميّز بها الجسد كذلك ينصرف ايضاً الى تأمل نفس هذه الامور المتعلّقة بالشعور باللذة .

وفي الوقت نفسه الذي ينصرف فيه هذا الكاهن الى تأمل التغيّر والعطب والزوال والانفصال والانقطاع والزهد التي تختص بالجسد كما تختص بالشعور باللذة ، في الوقت نفسه يتخلص من كل نزعة جشعة منصرفة نحو الجسد والاحساس باللذة .

(Samyutta Nikâya, IV ٢١١ صفحة)

١٧ ـ لا من هذا العالم ولا من العالم الآخر

كان الطوباوي ، في ذاك الوقت ، مقيماً في حديقة اناتها بنديكا[1] ، في سافاتهي ، يعلم اتباعه القانون ويوجههم ويشجعهم بخطبه عن النيرفانا . وكان الاتباع يصغون بانتباه كلي الى تعاليمه ويحفظونها في قلوبهم .

وفيما يلي احدى خطب الطوباوي :

هناك ، ايتها الاتباع ، مكان لا وجود فيه لتراب او ماء او نار او هواء او لامتناهي الفضاء او لامتناهي الوعي . ليس هو بعدم او وعي او لا وعي . ليس من هذا العالم ولا من العالم الآخر ولا منهما مجتمعين ولا من الشمس او القمر . هذه الحالة لا اسمّيها ، ايها الاتباع ، لا حضورًا ولا غياباً ولا ظهورًا ولا اختفاءً . لا اصل لها ، لا تتطور ولا تقف ، انها ، في الحقيقة ، نهاية الالم .

رؤية اللامتناهي صعبة ، وكذلك رؤية الحقيقة . التعلق المادي ينقطع عند من يدرك ، لا شيء يبقى بالنسبة اليه .

(١) اناتها بنديكا Anâthapindika : احد الاتباع الاثرياء .

هناك ، ايها الاتباع ، لا مولودٌ ولا مُنجبٌ ولا مخلوق ولا مكوّن. واذا لم يوجد ، ايها الاتباع ، لا مولود ولا منجب ولا مخلوق ولا مكون فلا خلاص لما هو مولود ومنجب ومخلوق ومكون . ولكن بما ان هناك ، ايها الاتباع ، لا مولود ولا منجب ولا مخلوق ولا مكون فان ما هو مولود ومُنجب ومخلوق ومُكون يستطيع ان يتحرر .

الاضطراب قائم بالنسبة لمن تقيده الارتباطات ، اما المتحرر من الارتباطات فلا يعرف الاضطراب . وعندما ينقطع الاضطراب يخيّم الهدوء ، وعندما يخيّم الهدوء تنتفي الاهواء ، وعندما تنتفي الاهواء فلا وجود بعد ذلك لظهور او اختفاء ، وعندما يتم ذلك ينعدم الموت والتولد الجديد .

وعندما ينعدم الموت والتولد الجديد ينتفي الـ « هنا » والـ « هناك » وينتفي كل شيء بينهما .

هذه هي ، في الحقيقة ، نهاية الالم .

(Udâna, 8,4 ; Pâtaligâma Sutta)

١٨ ـ جزيرة خارج العالم

اين يجد اولئك الذين تحاصرهم المياه من كل جانب ، واولئك الذين يرزحون تحت عبء الشيخوخة والموت ، جزيرة يلجأون اليها عندما تصطخب الامواج الثائرة الرهيبة ؟ .

هذا ما سأشرحه لك يا كابا[١] .

(١) كابا Kappa اسم احد الاتباع .

هذه الجزيرة الوحيدة يجدونها حيث لا وجود لأي شيء وحيث لا يبقى اي ارتباط . هذه الجزيرة هي ما ادعوه النيرفانا وهي ما اسميه نهاية الشيخوخة والموت . (Suttamipâta, 1093-1094)

١٩ ـ كتاب الارنب

كنت فيما مضى ، في حياتي السابقة ، ارنباً صغيراً اعيش في غابة قائمة على منحدر جبل . كنت اقتات بالاعشاب والنباتات والاوراق والثمار . ولم اكن اسيء الى احد . كنت اعيش بصحبة قرد وابن آوى وكلب ماء ، وكان الجيران يروننا سوية من الصبح حتى المساء . وكنت اثقّف رفاقي واشرح لهم واجباتهم واعلمهم الخير والشر واقول لهم : « ابتعدوا عن الشر واسعوا لعمل الخير . » وقلت لهم في احدى الليالي ، وكان البدر قد بلغ تمامه : « غداً يطل علينا العيد ، أعدّوا صدقاتكم كي تحسنوا الى من يستحق . وزعوا احسانكم على المعوزين كل حسب استحقاقاته واحتفلوا بهذا اليوم صياماً. » فاجابوني : « ليكن كذلك . »

واعدّ رفاقي ، كل حسب امكانياته ووسائله ، الصدقات ، وقاموا يفتشون عن المستحقين . اما انا فقد جلست افكّر في الصدقة التي استطيع اعدادها واتساءل : « اذا صادفت معوزاً يستحق الاحسان فماذا استطيع ان اقدم له ؟ لا سمسم عندي ولا فول ولا ارز ولا زبدة . اني اقتات بالاعشاب فقط . ولكن لا يعقل ان اتصدق بعشب . فاذا صادفت من سألني قوتاً وهو مستحق ذلك ، فسأقدم له نفسي كي لا يبرح هذا المكان دون ان يفوز بشيء . »

وادرك الاله اندرا ما دار في خلدي فاقترب من جحري ، وقد تزيّا بزيّ برهمي ، ليجرّبني ويرى الصدقة التي سأتصدق بها عليه . فقلت له جزلاً عندما ابصرته : « حسناً تصنع اذ تتقدم نحوي ساعياً وراء قوتك . انك تراعي القانون وتحافظ عليه وليس من طبيعتك ان تسيء الى كائن حي . اذهب فاجمع حطباً واضرم النار فسأشوي جسدي عليها ، وعندما انضج تستطيع ان تلتهمني ». فاجاب اندرا : «ليكن كذلك».

وانطلق فرحاً يجمع الحطب حتى توفّرت منه رزمة كبيرة . ووضع وسط الرزمة فحماً واضرم النار فيها . ثم اخذ ينفض الغبار الذي كان يغطي اعضاءه القوية وتقدم فجلس امام النار وعندما بدأت رزمة الحطب الكبيرة تقذف اللهب والابخرة قفزت وارتميت في وسط النار . وكما يهدأ هياج المحرور عندما يرتمي في احضان المياه الباردة ويفرح وينتعش هكذا سكّنت هذه النار المتأججة ، التي ارتميت في وسطها ، جميع اوجاعي ، وكانت ، بالنسبة لي ، مياهاً مبردة .

وهكذا قدمت لهذا البرهمي جلدي ولحمي واعصابي وعظامي وقلبي واطراف عضلاتي ، قدمت له جسمي بكامله مع اعضائي جميعها .

(Cariyâ Pitaka, 1,10 ; Jâtaka, 316)

٢٠ – الملكات الخمس

يوجد ، ايها الكهان ، خمس ملَكات .

ما هي هذه الملكات الخمس ؟

انها ملَكة الايمان ، وملكة الحيوية وملكة الانتباه ، وملكة التركيز ، وملكة المعرفة .

(Samyutta Nikâya, 5,4,10)

٢١ ـ تأمل الحقيقة

ان الكاهن ، الذي يعيش في مكان منفرد ، والذي تنضح روحه بالسلام ، ينعم ، وهو يتأمل الحقيقة المطلقة وجهاً لوجه ، بغبطة تفوق غبطة البشر .

(Dhammapada, 373)

عجلة القانون

خطاب بوذا الاول

كان الطوباوي في حديقة الغزلان ، في ايزيباتانا[1] ، بالقرب من بيناريس[2] ، عندما خاطب الكهان الخمسة[3] ، قائلاً :

هناك ، ايها الكهان ، موقفان متطرفان على الكاهن ان يتجنبهما.

ـ ما هما ؟

التعلق بملذات الحواس: وهذا حقير مبتذل دنيوي ودنيء ومنه تتولد نتائج سيئة ، والاستسلام الى الاماتات : وهذا مرهق ودنيء وعنه

---

(١) ايزيباتانا Isipatana : سارنات الهند الحديثة ، قرب بيناريس .

(٢) بيناريس Bénarès : مدينة مقدسة على نهر الغانج تعتبر المركز الرئيسي للادب البرهماني .

(٣) الكهان Bhikkus : رفاق الطوباوي القدامى .

تنشأ ايضاً نتائج سيئة .

ايها الكهان ،

عندما يتجنب التاتاغاتا[1] هذين الطرفين فانه يكتشف الطريق الوسط الذي يمنح الرؤيا والمعرفة ويقود الى السلام والحكمة ، الى النباهة والنيبانا[2] .

ولكن . ما هو ، ايها الكهان ، هذا الطريق الوسط الذي يكتشفه التاتاغاتا ، والذي يهب الرؤيا والمعرفة ويقود الى السلام والحكمة والنباهة والنيبانا ؟

انه الرَقَب السامي ، ذي المتفرعات الثمانية ، وهي النظرة الصحيحة والفكرة الصحيحة والقول الصحيح والعمل العادل ووسيلة الوجود الحقة والمجهود الحق والانتباه الصحيح والتركيز الصحيح .

هذا هو ، ايها الكهان ، الطريق الوسط الذي اكتشفه التاتاغاتا ، والذي يؤمن الرؤيا والمعرفة ويقود الى السلام والحكمة والنباهة والنيبانا .

وهاكم ، ايها الكهان ، الحقيقة السامية عن الدوكا[3] : فالولادة دوكا ، والشيخوخة دوكا ، والمرض دوكا ، والموت دوكا ، والاجتماع بمن لا نحب دوكا ، والانفصال عن من نحب دوكا ، والحرمان مما نرغب دوكا . وخلاصة القول ان انواع التعلق الخمسة دوكا .

وهاكم ايها الكهان ، الحقيقة السامية عن سبب الدوكا : انه هذا « التعطش » (الرغبة) الذي يولّد العودة الى الوجود والى الصيرورة ،

---

(١) التاتاغاتا Tathāgata : الذي بلغ الحقيقة اي الذي اكتشفها .

(٢) النيبانا Nibbāna : او النيرفانا (باللغة السنسكريتية) تعني القضاء على العطش والحقد والوهم والارتباط . وتعني ايضاً الحقيقة .

(٣) الدوكا Dukkha : الالم ، الصراع ، الحرمان ، الطمع ، الفراغ .

والمرتبط بجشع عنيف ، والذي يجد ، تارة هنا وتارة هناك ، متعة جديدة ، اي انه الظمأ للذات الحواس والوجود والصيرورة واللاوجود (الفناء الذاتي) .

وهاكم، ايها الكهان، الحقيقة السامية عن زوال الدوكا : وضع حد نهائي لهذا « التعطش » واهماله والاعراض عنه والتحرر منه والزهد فيه.

وهاكم ايها الكهان ، الحقيقة السامية عن السبيل الذي يقود الى زوال الألم : انه الزقب السامي ذي التشعبات الثمانية : النظرة الصحيحة والفكرة الصحيحة والقول الصادق والعمل العادل ووسيلة الوجود الحقة والمجهود الصادق والانتباه الصحيح والتركيز الصحيح .

وعندما ادرك ان « هذه هي الحقيقة السامية عن الدوكا » ترتفع من اعماقي ، ايها الكهان ، الرؤيا والمعرفة والحكمة والعلم والنور فألمّ بالمسائل التي لم يسمع بها احد من قبل .

وعندما ادرك ان « عليّ ان افهم هذه الحقيقة السامية عن الدوكا » ، وأنني « فهمت هذه الحقيقة السامية عن الدوكا » تبرز فيّ ، ايهـا الكهان ، الرؤيا والمعرفة والحكمة والعلم والنور فأعي الأمور التي لم يسمع بها احد من قبل .

وعندما ادرك ان « هذه هي الحقيقة السامية عن سبب الدوكا » ، وان « عليّ ان احطم هذه الحقيقة السامية » ، وان « هذه الحقيقة قد حُطّمت» عندها تتصاعد من اعماقي ، ايها الكهان ، الرؤيا والمعرفة والحكمة والعلم والنور فاطلع على القضايا التي لم يسمع بها احد من قبل .

وعندما ادرك ان «هذه هي الحقيقة السامية عن زوال الدوكا» ، وان « عليّ ان افهم هذه الحقيقة السامية » وانني « فهمت هذه

الحقيقة » ، عندئذ ترتفع فيّ ، ايها الكهان ، الرؤيا والمعرفة والحكمة والعلم والنور فأعي الاشياء التي لم يسمع بها احد من قبل .

وعندما ادرك ان « هذه هي الحقيقة السامية عن السبيل الذي يقود الى زوال الدوكا » ، وان « عليّ ان اوضح الحقيقة السامية عن السبيل الذي يقود الى زوال الدوكا وان أطبقها » ، وانني « قد اوضحت هذه الحقيقة السامية عن السبيل الذي يقود الى زوال الدوكا وطبقتها » عندها تبرز فيّ ، ايها الكهان ، الرؤيا والمعرفة والحكمة والعلم والنور فافهم القضايا التي لم يسمع بها احد من قبل .

ايها الكهان

عندما لم يكن ادراكي الحقيقي لهذه الحقائق السامية الاربع ولاوجهها الثلاثة ولكيفياتها الاثنتي عشرة[1] قد اتضح لي تماماً فانني بقيت امداً طويلاً دون ان اعلن لهذا العالم، بالهيه مارا[2] وبراهما[3] ، وبافواج نساكه وبراهمته[4]، وبكائناته السماوية والبشرية ، انني حصلت على المعرفة السامية التي لا مثيل لها .

ولكن عندما اصبح ادراكي الحقيقي لهذه الحقائق السامية الاربع ولأوجهها الثلاثة وكيفياتها الاثنتي عشرة واضحاً تماماً اعلنت عندئذ لهذا

(١) معرفة الحقائق الاربع السامية، ومعرفة سير عمل كل واحدة منها ، ومعرفة ان مهمة كل واحدة من هذه الحقائق قد انجزت. والكيفيات الاثنتا عشرة هي الاوجه الثلاثة التي لكل واحدة من هذه الحقائق الاربع السامية .

(٢) مارا Mara : تعني حرفياً الموت ، وهي تجسيد كل ما هو شر ، وتعني ايضاً كل اغواء وكل ما يربط الكائن بعجلة الوجود .

(٣) براهما Brahma : الاله السامي خالق الالهة والكائنات .

(٤) براهمة Brahmanes : جمع برهمي والبرهمي هو الذي يتبع دين براهما .

العالم بالهيه مارا وبراهما ، وبجماعات نساكه وبراهمته ؛ وبكائناته السماوية والبشرية انني حصلت على المعرفة السامية التي لا مثيل لها .

وبرزت المعرفة العميقة في نفسي فادركت ان تحرير فكري اضحى نهائياً وحاسماً وان ولادتي هذه هي الاخيرة وانه لن تكون بعد الآن حياة جديدة .

هكذا تكلم الطوباوي فاضفى الغبطة على قلوب الكهان الخمسة الذين اثنوا على اقواله .

(Samyutta-Nikâya, Sacca-Samyutta, 11,1)

محبة الجميع

هاكم ما يترتب على الحكيم الذي ينشد الخير والذي تحرر من القلق :

عليه ان يكون نشيطاً ، صادقاً كل الصدق ، طائعاً ، لطيفاً ، شريف النفس ، فرحاً ، قنوعاً .

عليه ان لا يدع مشاغل العالم تسيطر عليه ، وان لا ينوء تحت عبء الغنى ، وان يتحكم بحواسه ، وان يكون حكيماً متواضعاً غير متعلق بعائلته .

عليه ان لا يأتي عملاً وضيعاً يرذله الحكماء وان يعمل لاسعاد جميع الكائنات فيؤمن لها الفرح والطمأنينة .

عليه ان يُسعد جميع هذه الكائنات الحية ، الضعيفة منها والقوية ، الطويلة والكبيرة والمعتدلة ، القصيرة والصغيرة ، الظاهرة والمستترة ، القريبة والبعيدة ، التي ولدت او على وشك ان تولد .

وعلى الاخ ان لا يخدع اخاه ، وان لا يحتقر كائناً اياً كان ، وان لا يحمله الغضب او الحقد على تمني الشر للغير .

وكما تجازف الام بحياتها لتسهر على وحيدها وتحافظ عليه هكذا علينا ان نحب ، بقلب مفتوح لا تقيّده الحدود ، كل شيء حي .

علينا ان نحب العالم كله ، ما تحته وما عليه وما حوله ، حباً لا نهاية له .

علينا ان نحبه بطيبة خيّرة لا محدودة.

وعلينا ان نعمل لهذه الفكرة طالما نحن احياء ، أواقفين كنا ام سائرين ، أجالسين أم مضجعين ، علينا ان نعمل لهذه التي ندعوها : طريقة العيش السامية . والانسان الفاضل الذي اهمل الافكار الخاطئة ، وتخلص من شهوات الحس ، واصبح يدرك دخيلته ادراكاً عيقاً ، هذا الانسان الكامل لن يعرف ، بعد هذا ، ولادة ثانية .

(Suttanipâta, I,8)

البركات

كان الطوباوي ، في احدى المرات ، مقيماً في دير انا تهبنديكا ، في حديقة جيتا ، في مدينة سافتهي ، وحوالى منتصف الليل تراءى له اله جميل فتان اقترب منه وحيّاه باحترام ووقف بجانبه ثم خاطبه قائلاً : « كثيرون هم الالهة والبشر الذين يتناقشون في النعم التي تهب السعادة . فارجوك ان تتكرم فتشرح ، لاولئك الذين ينشدون معرفة الاشياء الحقيقية الخيّرة ، النعم » .

فقال البوذا :

النعمة الكبرى هي ان لا تجتمع بالمجانين بل بالحكماء ، وان تكرم الذين يستحقون التكريم .

النعمة الكبرى هي ان تعيش في مكان يؤمن لك فوائد كثيرة ، وتستفيد من الاستحقاقات المنجزة سابقاً ، وتنمّي طباعك بطريقة ملائمة.

النعمة الكبرى هي ان تتثقف بالعلم والفن ، وتكون مهذباً وعليماً ، ولا تقول الاّ الحق .

النعمة الكبرى ان تعتني باهلك وتعامل زوجتك واولادك معاملة حسنة وتقوم بالاعمال الصالحة .

النعمة الكبرى هي ان تكون محسناً ، وتسلك سلوكاً شريفاً وتعتني بعائلتك وتأتي الاعمال الخيّرة .

النعمة الكبرى هي ان تتنزّه عن الشر وتقلع عن تناول السموم وتكون حذرًا في عمل الخير .

النعمة الكبرى هي ان تسلك سلوكاً يتميّز بالوقار واللطف وتكون فرحاً تعترف بالجميل وتصغي الى صوت القانون في الوقت المناسب .

النعمة الكبرى هي ان تكون صبورًا وانيساً وتنشد صحبة الكهان (الحكماء) وتتحدث عن القانون في الظرف الملائم .

النعمة الكبرى هي ان تكون قنوعاً تعيش عيشة طهر وتدرك الحقائق السامية ادراكاً داخلياً عميقاً وتفهم النيبانا فهماً تاماً .

النعمة الكبرى هي ان تصمد نفسك بوجه مغريات العالم وتتحرر من الحزن والتعلق والخوف .

الذين يتبعون هذه المبادئ لا يُقهرون ابدًا بل يتجهون دائماً نحو السعادة وهذا ، بالنسبة اليهم ، نعمة كبرى .

(Suttanipâta, 11,4)

كان الطوباوي ، في ذاك الوقت ، مقيماً في حديقة البامبو ، في منجىً من السناجب ، بالقرب من رادجقرها .

في نفس الوقت كان سيفالا الشاب ، ابن الملاك الثري ، خارجاً ، في الصباح الباكر ، من رادجقرها ، وقد بلّل ثيابه وشعره ، وهو يحيي ، ويداه متشابكتان ، مختلف الجهات : الشرق والجنوب والغرب والشمال وسمت القدم وسمت الرأس . وكان الطوباوي قد لبس ثيابه وحمل الكيس الذي يجمع فيـــه الصدقات وخرج متجهاً الى رادجقرها ليحصل على قوت يومه . فرأى الشاب وهو يحيي الجهات فقال له : « لمَ استيقظت باكرًا هكذا وخرجت من رادجقرها وبللت شعرك وثيابك واخذت تحيي مختلف الجهات ؟ » فاجاب الشاب : « اوصاني والدي ، يا سيدي ، وهو يموت ، قال : « عليك يا ولدي العزيز ان تحيي الجهات » . وبما اني احترم ارادة والدي واجلها وابجّلها فانني آتي يومياً الى هذا المكان ، في الصباح الباكر ، فاحيي الجهات . »

فاجابه الطوباوي : « ولكن العلم السامي يفرض عليك ، ايها الشاب ، ان تعتمد ، في تحية الجهات ، طريقة اخرى » .

— كيف يجب ان اتصرف اذًا يا سيدي كي اتقيد بالتعليم السامي ؟ من الافضل ان يتكرم الطوباوي فيشرح لي العقيدة .

— أصغ اليّ وتأمل جيدًا فسوف احدثك عن ذلك .

فاجابه سيفالا : ليكن ذلك يا سيدي .

فخاطبه الطوباوي قائلاً : بقدر ما يتحرر التبع الشريف من الاعمال المذلة الاربعة وبقدر ما ينقطع عن ارتكاب الشر بانواعه

الاربعة ، وبقدر ما يتجنب تبذير امواله بالطرق الست ، وبقدر ما يتحاشى هذه الامور السيئة الاربعة عشر فانه يحدق بالجهات الست ويلج الزقب الذي يقود الى النصر في العالمين فيفوز بهذا العالم وبالعالم الآخر . وعند انحلال جسده بعد الموت يتقمص في احد العوالم السماوية السعيدة .

— ما هي الأفعال المذلة الاربعة التي يتحرر منها التبع؟

— قتل النفس عمل مذل وكذلك السرقة والعلاقات الجنسية غير المشروعة والكذب ، هذه هي الافعال المذلة الاربعة التي يتحرر منها.

— وما هي الاساليب الاربعة التي تساعدنا على عدم ارتكاب الشر ؟

— نرتكب الشر اذا سيطرت علينا الشهوة
ونرتكب الشر اذا سيطر علينا الغضب
ونرتكب الشر اذا سيطر علينا الجهل
ونرتكب الشر اذا سيطر علينا الخوف .

وبما ان التبع الشريف لا تسيطر عليه الشهوة والغضب والجهل والخوف فانه لا يرتكب الشر بهذه الطرق الاربع .

— وما هي الطرق الست التي تبدّد بها الاموال والتي اقلع عنها التابع الشريف ؟

— الادمان على المشروبات المسكرة التي تسبب الجنون والغفلة ، التسكع في الشوارع في ساعات غير مناسبة ، التردد الى المسارح ، الاستسلام للقمار الذي يسبب الاضطراب ، الانضمام الى رفاق سوء ، الارتماء في احضان الكسل : هذه هي الامور الستة التي تسبب تبذير الاموال .

وهذه هي النتائج الست السيئة التي يجنيها اولئك الذين يدمنون المسكرات :

فالمسكرات تسبب الجنون والغفلة وخسارة الثروة وتكاثر الخلافات وقابلية الجسم للامراض والسمعة السيئة والفضائح المخزية وتضاؤل الذكاء .

وهذه هي النتائج الست السيئة التي يصل اليها اولئك الذين يتسكعون في الشوارع في اوقات غير ملائمة :

يبقى المتسكع دون حراسة وحماية وكذلك زوجته واولاده وممتلكاته، ويصبح موضع شبهة اذا ما حصل سوء، وعرضة للاتهامات ، ويلاقي الكثير من الشقاء .

وهذه هي النتائج الست السيئة التي يحصدها اولئك الذين يرتادون المسارح :

ينطلقون وهم يتساءلون : اين يرقصون ؟ اين يغنون ؟ اين يعزفون الموسيقى ؟ اين يمثلون مسرحية ؟ اين يجدون فرقة موسيقية ؟ اين يلهون ؟

وهذه هي النتائج الست السيئة التي يجنيها المقامرون :

اذا ربحوا اثاروا الحقد عليهم ، واذا خسروا يئسوا . يخسرون اموالهم ، لا يثق الناس بكلامهم ، يحتقرهم اصدقاؤهم وشركاؤهم ، لا يستطيعون ان يتزوجوا لان المقامر لا يستطيع الاعتناء بزوجته .

اما الذي ينضم الى رفقة سوء فان النتائج الست السيئة التي تصيبه هي : يصبح صديقاً ورفيقاً لكل مقامر ونهم وسكير وسارق وغشاش ولص .

اما الذي يستسلم للكسل فتنزل به النتائج الست السيئة التالية :

لا يأتي عملاً مدعياً مرة بان الطقس بارد واخرى بانه حارّ ، وحيناً بان الوقت قد فات وآخر بان العمل ما زال سابقاً لاوانه ، وتارة بانه جائع وطورًا بانه متخم . وهكذا يعيش على هذا المنوال تاركاً الكثير من الواجبات المفروضة عليه ومهملاً الكثير من المنافع . كما انه لا يكسب شيئاً وتتلاشى ممتلكاته .

وهناك اربعة انواع من الاصدقاء يجب ان نعتبرهم اعداء :

الصديق الذي يستفيد من صديقه

والصديق الذي لا يؤدي خدمة الاّ بالكلام

والصديق الذي يتملق

والصديق الذي يسبب خراب صديقه .

وعلينا ان نعتبر تصرف الصديق الذي يستفيد من صديقه كتصرف العدو وذلك عندما يعتمد ذاك الصديق الاساليب الاربعة التالية :

يستولي على ثروة صديقه

يأمل الحصول على الكثير ولا يبادل صديقه الاّ بالقليل

لا يؤدي واجبه الاّ بسبب الخوف

ولايصادق الاّ عندما يجد ان مصلحته الخاصة تفرض ذلك .

وعلينا ان نعتبر تصرف الصديق الذي لا يؤدي خدمة لصديقه الاّ بالكلام كتصرف العدو وذلك عندما يعتمد ذلك الصديق الاساليب الاربعة التالية :

يحدث صديقه عن الماضي وعن المستقبل ، ويهتم بما لا يفيد ، ويدعي ، عندما يحتاج صديقه الى عون مستعجل ، انه غير قادر على شد ازره .

وعلينا ان نعتبر تصرف الصديق الذي يتملق صديقه كتصرف العدو وذلك عندما يعتمد ذاك الصديق الاساليب الاربعة التالية :

يحبّذ الافعال السيئة والاعمال الصالحة على حد سواء ، يثني على صديقه عندما يحضر ويحقره عندما يغيب .

وعلينا ان نعتبر تصرف الصديق الذي يسبب خراب صديقه كتصرف العدو وذلك عندما يعتمد ذاك الصديق الاساليب الاربعة التالية :

يصحب السكير ويرافقه اثناء الليل ويرتاد المسارح بمعيته ويشاركه لعب القمار .

أما الذين ندعوهم اصدقاء مخلصين فهم على اربعة انواع :

الصديق الذي يساعد صديقه

والصديق الذي لا يتغيّر في السراء او الضراء

والصديق الذي يزوّد صديقه بنصيحة مفيدة

والصديق الذي يحب صديقه محبة حقيقية .

اما الاساليب التي يعتمدها الصديق المخلص في معاملته لصديقه الذي يساعده فاربعة : يحمي الطائش ، ويحرس مقتنيات صديقه ، ويكون له بمثابة ملاذ عند الخوف ، ويقدم له ، عند الحاجة ، ضعف ما يعوزه .

وهناك اساليب اربعة يعتمدها الصديق المخلص في معاملته لصديقه الذي لا يتبدل في السراء او الضراء :

يبوح باسراره لصديقه ، لا يفشي اسرار صديقه ، لا يدعه فريسة العوز ، يضحي حتى بحياته في سبيل خير صديقه .

وهناك اساليب اربعة يعتمدها الصديق المخلص حيال صديقه الذي يزوده بالنصائح الصالحة :

يصرف صديقه عن الاعمال السيئة ،

يحضّه على عمل الخير ،

يفهمه الامور التي اهمل الاصغاء اليها ،
يرشده الى السراط المستقيم .

وهناك اساليب اربعة يعتمدها الصديق المخلص حيال صديقه الذي يحبه محبة حقيقية :

يغتمّ لبؤس صديقه
يفرح لنجاحه
يمنع اغتيابه
يشجع الذين يثنون عليه .

اما الطريقة التي يحيّي بها التابع الشريف الجهات الست ، التي يجب ان تمثّل ما يلي : الشرق يمثل الاهل ، الجنوب يمثل الاسياد (المعلمين) ، الغرب يمثل الزوجة (والاولاد) ، الشمال يمثل الاصدقاء والشركاء ، سمت القدم يمثل الخدم ، سمت الراس يمثل رجال الدين ، فها هي :

هناك اساليب خمسة يعتمدها الولد في تكريم اهله وفي تكريم الشرق :

يعتني بهم طالما انهم اعتنوا به ،
يقوم بواجباته حيالهم
يحافظ على تقاليد العائلة
يتصرف بطريقة يتمكن بواسطتها من حماية ممتلكات العائلة
يقدم الصدقات عن نفس اهله الاموات .

وهناك اساليب خمسة يعتمدها الاهل الذين يتمثلون بالشرق ليبرهنوا عن عطفهم على ابنائهم الذين يكرمونهم هذا التكريم :

يصرفونهم عن عمل الشر
يحثونهم على عمل الخير

يعلمونهم فناً من الفنون.

يختارون لهم زوجات صالحات

يعطونهم ميراثهم في الوقت الملائم .

هذه هي الطرق الخمس التي يكرم بها الاولاد اباءهم والتي يبرهن بواسطتها الاهل عن عطفهم على هؤلاء الابناء ، وهكذا يصبح الشرق في أمان وسلام .

اما الطرق التي على التلميذ ان يتبعها في خدمة سيده (معلمه) وفي خدمة الجهة الجنوبية بالتالي فخمس :

يقف بين يديه ،

يقوم بخدمته ،

يصغي اليه بانتباه ،

يهتم شخصياً به ،

يدرس تعاليمه بانتباه .

ويبرهن المعلم الذي يعامله تلامذته بهذه الطريقة عن عطفه عليهم بتعليمهم افضل تعليم وتزويدهم بخير المعارف وتلقينهم الفنون والعلوم، وتقديمهم الى اصدقائه وشركائه ، وسهره على سلامتهم حيثما حلوا .

وهكذا يبرهن الاساتذة الذين يعاملهم تلامذتهم معاملة حسنة عن حدبهم عليهم ، وبهذه الطريقة يصبح الجنوب في امان وسلام .

وعلى الزوج ان يعتمد ، في تكريم زوجته وفي تكريم الغرب ، الاساليب الخمسة التالية :

يكون لطيفاً معها ، لا يحتقرها ، يخلص لها ، يعترف لها بسلطة ، يقدم لها الحلى . وتبرهن الزوجة ، التي يعاملها بعلها بهذه الطريقة ، عن عطفها عليه بان تقوم بكامل واجباتها وتعامل جيرانها معاملة حسنة

وتخلص لزوجها وتعتني بما يحمله لها وتكون ماهرة ونشيطة في تأدية واجباتها .

وهكذا تظهر الزوجة عطفها على الزوج الذي يعتني بها ، وبهذه الطريقة يصبح الغرب في امان وسلام .

اما الاساليب التي يعتمدها الصديق في اسداء الخدمات الى صديقه والى الجهة الشمالية فخمسة :

يكون سخياً ، لبقاً في كلامه ، يؤدي خدماته معتمداً في ذلك مبدأ المساواة والامانة .

ويبرهن الاصدقاء الذين يعاملهم صديقهم بهذه الطريقة ، بدورهم ، عن عطفهم على هذا الصديق فيحمونه عندما يغفل عن الخطر ، ويحرسون ممتلكاته عندما لا يحترس للخطر ، ويجيرونه عندما يتعرض للاخطار ، ولا يتخلون عنه ، ويتساهلون مع اولاده .

وهكذا يبرهن الاصدقاء عن عطفهم على من يبادلهم بالمثل ويصبح الشمال ، بهذه الطريقة ، في امان وسلام .

اما السيد فعليه ، في معاملته اجرائه ومستخدميه وسمت القدم بالتالي ، ان يراعي الطرق الخمس التالية :

يَكل اليهم العمل الذي يتناسب مع قواهم ،
يقدم لهم الأكل والأجر ،
يعتني بهم اثناء مرضهم ،
يقتسم الاطعمة الممتازة معهم ،
يمنحهم الاجازات من وقت لآخر .

ويظهر الاجراء والمستخدمون ، الذين يُعاملون بهذه الطريقة ، حبهم لسيدهم وعطفهم عليه فيستيقظون قبله ، وينامون بعده ، ولا يأخذون

الاّ ما يُعطون ، ويقومون باعمالهم باخلاص ، وينشدون صيت سيدهم الحسن .

وهكذا يبرهن الخدم عن عطفهم على سيدهم الذي يعاملهم معاملة حسنة فتصبح جهة سمت القدم ، اذ ذاك ، في امان وسلام .

اما في خدمة رجال الدين وسمت الرأس فعلينا ان نتبع خمس طرق : الاعمال الصالحة ، الاقوال الحلوة المستحبة ، الافكار الانيسة ، استقبال رجال الدين وعدم اغلاق الابواب عن حضورهم ، تدارك احتياجاتهم .

ويبرهن رجال الدين ، الذين يلقون مثل هذه المعاملة ، عن عطفهم على العلمانيين بصرفهم عن الشر ، وحضّهم على عمل الخير ، وحبهم ، وتلقينهم ما يجهلون ، وشرح ما سبق وتعلموه ، وارشادهم الى الطريق الذي يقود الى المصائر السامية .

وهكذا يظهر رجال الدين عطفهم على العلماني الذي يعاملهم معاملة حسنة ، وبهذا الشكل تصبح جهة سمت الرأس في امان وسلام .

وهكذا لا يبلغ مراتب المجد الاّ من كان حكيماً وفاضلاً ، لطيفاً ومتفهماً ، شريفاً وطائعاً ، هماماً ، نشيطاً ، ذكياً ، ثابتاً لا تغيّره الثروة ، معتمداً سلوكاً لا لوم فيه ، مضيافاً ، متحرراً ، غير متكبر ، موجهاً ومعلماً لبني قومه مصلحاً بينهم ، متخذاً لنفسه اصدقاء .

وكما ان قطعة الحديد او الخشب التي تشد طرفي الدولاب ضرورية لدورانه كذلك فان السخاء والكلام اللطيف والخدمات التي نسديها الى الآخرين والتمسك ، تجاه الجميع ، وفي جميع الاحيان ، بمبدأ المساواة ، هي الصفات الضرورية في هذا العالم .

وعندما انتهى الطوباوي من كلامه هتف سيفالا قائلاً : « لقد اجدت يا سيدي، كلام آية في الروعة . كأني بالأمور المقلوبة رأساً على عقب قد عادت فاستوت في وضعها الطبيعي ، وبالقضايا التي كانت مستترة قد ظهرت . يبدو لي ان ما قلته هو الطريق الذي ترشد اليه التائه او المصباح الذي يمزّق حجب الظلمات كي يستطيع من له عينان مبصرتان ان يرى » .

هكذا شرح الطوباوي العقيدة : اما انا فانني الوذ بالبوذا وبالعقيدة والجماعة (جماعة الكهان)، فليتكرم الطوباوي ويقبلني تابعاً علمانياً انهج نهجه منذ الآن وحتى آخر ايام حياتي .

(Digha Nikâya, XXXI)

من هو الباريا ؟[1]

كان الطوباوي ، في ذاك الوقت ، مقيماً في دير اناتها بنديكا، في حديقة جيتا ، في سافتهي . وفي الصباح لبس الطوباوي ثيابه وحمل الكيس الذي يجمع فيه الصدقات ودخل سافتهي ليستعطي . وصادف ان كانت نار الذبيحة ، في ذاك الحين ، مضرمة في منزل البرهمي اجيكا بهاردفاجا ، والقرابين جاهزة . واخذ الطوباوي يتنقل من بيت لآخر حتى اقترب من بيت البرهمي اجيكا . وعندما رآه البرهمي يقترب من بيته صرخ فيه : « لا تقترب يا حليق الرأس ، قف ايها الساماناً[2] الشقي ، مكانك ايها المنبوذ » .

---

(١) باريا Paria هو المحروم من جميع الحقوق الدينية والاجتماعية، المنبوذ .

(٢) سامانا او سرامانا Samana : كلمة يقصد بها القديس الزاهد ورجل الدين البوذي .

وعندما سمع الطوباوي هذا اجاب : « هل تعرف ، ايها البرهمي ، من هو المنبوذ ، وما هي الاشياء التي تجعل الانسان منبوذاً ؟ »

— كلا يا غوتاما الجليل لست اعرف ذلك ومن الخير ان تعلمني ايها الموقّر لاتمكن من التعرف الى المنبوذ والى الاشياء التي تجعل الانسان منبوذاً .

— اذاً اسمع وانتبه ايها البرهمي فسأعلمك ذلك .

فاجابه البرهمي : حسناً ايها المبجّل .

فقال الطوباوي : الرجل الغضوب واللئيم والخبيث والغشاش والذي يعتنق آراء مغلوطة هذا يجب ان تعتبره منبوذاً .

ومن يعذب المخلوقات الحية في هذا العالم ، مرة واحدة كانت مولودة ام مرتين[1] ، ومن لا يختلج قلبه بالعطف على هذه الكائنات ، هذا يجب ان تعتبره منبوذاً .

ومن يدمر القرى والمدن او يحاصرها ، ومن يتصرف تصرف الاعداء ، هذا يجب ان يعتبر منبوذاً .

ومن يستولي بواسطة السرقة ، على اموال الآخرين او على الشيء الذي حرّمه ، أكان ذلك في القرية او في الغابة ، هذا يجب اعتباره منبوذاً .

ومن يستدين ثم لا يلبث ان يخدع دائنه قائلاً : « لست مديناً لك بشيء » هذا يجب ان يعتبر منبوذاً .

---

(١) المخلوقات التي تولد مرتين هي تلك التي تلد من البيضة . فالولادة الاولى تتم عند وضع البيضة اما الولادة الثانية فعند خروج المخلوق من البيضة . ويشير البوذا هنا الى الطيور والسلاحف المولودة من البيضة ويعتبر ان البيضة تحتوي على الحياة .

ويجب ان نعتبر منبوذًا كل من يهاجم مسافرًا ليسلبه غرضاً طمع به .

ويجب ان نعتبر منبوذًا كل من يدلي بشهادة كاذبة أكان ذلك لمنفعته ام لمنفعة الآخرين ام في سبيل الحصول على الثروة .

ويجب ان نعتبر منبوذًا كل من يغوي نساء اقاربه او اصدقائه أكان ذلك بالقوة ام برضاهن .

ويجب ان نعتبر منبوذًا كل من يستطيع القيام باود امه وابيه ويمتنع عن ذلك .

ويجب ان نعتبر منبوذًا كل من يوجه لامه او ابيه او اخيه او اخته او اقاربه قوارص الكلام فيجرح كرامتهم .

ويجب ان نعتبر منبوذًا كل من يعطي ، عندما يستشار ، نصائح سيئة ويتآمر بالسر ، وكل من يأتي عملاً سيئاً ويأمل ان لا يعرف به احد ، ويرتكب الشر سرًا .

ويجب ان نعتبر منبوذًا كل من يضيف صديقاً ولا يبادله بالمثل ، ويخدع ، عن غير قصد ، برهمياً او سامانا او اي شحاذ آخر .

ويجب ان نعتبر منبوذًا كل من يوجه كلاماً قارصاً الى برهمي او سامانا يزوره وقت الطعام ولا يتصدق عليه بشيء ، ومن اطبق عليه جهله فامتنع عن التصدق باية حسنة واحتقر الهبات المتواضعة ، ومن يتباهى على الآخرين ويحتقرهم ويتكبر عليهم مع انه موضوع احتقار .

ويجب ان نعتبر منبوذًا كل من يثير غضب الآخرين ويكون

بخيلاً حسوداً مخادعاً متميزاً برغبات سيئة لا يخجل ولا يخاف من عمل الشر .

ويجب ان نعتبر منبوذاً كل من يشتم البوذا او احد اتباعه او كاهناً تائهاً او علمانياً . ومن ادّعى انه قديس وهو ابعد ما يكون عن القداسة فهو ، في الحقيقة ، اكبر لص واحقر منبوذ عرفته جميع العوالم بما فيها عالم البراهما .

المنبوذون هم ، في الحقيقة ، من وصفت . واصل الانسان لا يجعله منبوذاً ولا برهمياً ، الاعمال هي التي تجعله منبوذاً او برهمياً .

سأورد لك هذا المثل فاصغ اليّ :

كان هناك منبوذ يدعى سوباكا ، مشهوراً باسم ماتنغا . واستطاع هذا الماتنغا ان يرقى الى اعلى درجات المجد وان يبلغ القمة التي يفشل في بلوغها الكثيرون . وكان يقوم على خدمته كثير من الاشراف والبراهمة . واستطاع ان يبلغ عالم براهما وذلك بعد ان اعتلى العربة الالهية وولج الطريق السامي وتحرر من الغبار واهمل شهوات الحس . وهكذا لم يمنعه اصله من ان يولد مرة ثانية في عالم براهما .

وهناك براهمة ينتسبون الى عائلات تكرست للرقيات ونسبهم هذا يفرض عليهم اتباع تعاليم الفيدا[1] ، ولكنهم يقومون ، رغم ذلك ، باعمال سيئة فيصبحون موضع احتقار في هذا العالم وتكتنفهم ، في ولادتهم الثانية ، حالة الشقاء والبؤس . وهكذا لا يخلصهم اصلهم لا من الجحيم ولا من الذم .

واصل الانسان ليس السبب في جعله منبوذاً او برهمياً ، ولكن اعماله هي السبب في ذلك .

---

(١) الفيدا Vedas : الكتب المقدسة عند الهندوس .

وعندما سمع البرهمي اجيكا بهاردفاجا هذا الكلام هتف قائلاً :
« هذا رائع يا غوتاما الجليل ، رائع . كانني بك ارجعت ما كان مقلوباً الى وضعه الطبيعي . او مزقت السجف عن ما كان مستتراً ، او ارشدت من كان تائهاً الى الطريق ، او حملت الى المبصرين مصباحاً يرشدهم في الظلمات . »

وهكذا اوضح غوتاما الجليل الحقيقة من عدة اوجه .

اني الوذ بغوتاما الجليل وبالعقيدة وبجماعة الكهان ، فليتكرم غوتاما الموقر ويقبلني كاحد اتباعه العلمانيين ، وسيكون غوتاما المحترم والعقيدة وجماعة الكهان ملاذاً لي من الآن وحتى آخر ايام حياتي .

(Suttanipâta, I,7)

اقوال الحقيقة

مقاطع مختارة

١

الفكر يسبق جميع الحالات العقلية ويرئسها ويوجدها ، والالم يتبع الرجل الذي يتكلم او يعمل بروح شريرة كما تلاحق العجلة حافر الثور الذي يجر العربة .

الفكر يبشر بجميع الحالات العقلية ويرئسها ويولّدها ، والسعادة

ترافق الانسان الذي يتكلم او يعمل بروح طاهرة كما يرافقه ظله الذي لا يفارقه .

الحقد يتأجج باستمرار في نفوس الذين يقولون بانهم « تعرضوا للسخرية والانكسار والمعاملة السيئة والسرقة . »

والحقيقة ان نار الحقد لا تخبو بالحقد بل بالحب ، وهذا قانون ازلي .

اكثر الناس ينسون اننا مائتون يوماً ما . اولئك الذين يتذكرون هذا لا يعرفون الصراع ، واولئك الذين يأخذون الخطأ على انه حقيقة والحقيقة على انها خطأ ، اولئك الذين يسرحون في مراعي الافكار المغلوطة ، هؤلاء لا يصلون ابداً الى الحقيقة .

ولكن الذين يأخذون الحقيقة على انها حقيقة ، والخطأ على انه خطأ ، والذين يسرحون في مراتع الافكار الصحيحة ، هؤلاء يصلون الى الحقيقة .

وكما ان مياه الامطار تتسرب الى البيت الذي تغطي سقفه سنابل التين الطويل المفكّك كذلك يتسرب الهوى الى الروح المتخلفة .

وكما ان مياه الامطار لا تتسرب الى البيت الذي يغطيه سقف من التبن المحكم المتراص كذلك فان الهوى لا يتسرب الى الروح المتطورة .

والكائن الذي اقترف عملاً شريراً يتأوه في هذا العالم وفي العالم الآخر. يتأوه في الحالتين ويئن ويغتم عندما يبصر افعاله الدنسة .

اما الذي اتى عملاً صالحاً فانه يُسرّ في هذا العالم وفي العالم الآخر ، يفرح في الحالتين ويغتبط ويسعد سعادة قصوى عندما يبصر اعماله الطاهرة .

٢

الحذر طريق الخلود والاهمال طريق الموت . الحذرون لا يموتون والمهملون سبق و وقعوا فريسة للموت .

وعندما يدرك الحكماء الايقاظ ، السائرون على نهج الشرفاء ، هذه الفكرة ادراكاً تاماً فانهم يغتبطون بالحذر .

والرجال الحكماء المستغرقون في التأمل ، المثابرون على ذلك دون كلل ، يبلغون النيبانا التي هي السعادة القصوى .

والرجل النشيط اليقظ ، المتحكم باهوائه ، الذي تتميّز اعماله بالاخلاص والذي يعمل وفق خطة مدروسة ، ويعيش بعدل وصدق ، هذا الرجل يزداد صيته الحسن وينتشر .

وعلى الرجل الحكيم ان يتحول ، بنشاطه ويقظته وسيطرته على ذاته ، الى جزيرة ترتد عن اقدامها الامواج خائبة حسيرة .

يستسلم الحمقى ، وقد سيطر عليهم الجهل ، للاهمال ، بينما يحافظ الحكيم على الحذر كاثمن كنز لديه .

فلا تنجرفوا في تيار الاهمال ، ولا تستسلموا للذات الحواس ، فمن ينصرف للتأمل يبلغ الغبطة الكبرى .

وكما ينطلق الجواد السريع مخلفاً وراءه الافراس الضعيفة هكذا يتقدم الحكيم اليقظ الحذر تاركاً وراءه المهملين والغافلين .

لم يرتفع اندرا[1] الى اعلى مراتب الآلهة الاّ بفضل الحذر ، ولذا ترانا نمتدح الحيطة ونقبّح الاهمال .

(١) اندرا Indra : راس الهة الفيدا والبطل القومي ذي الانتصارات الخارقة.

والكاهن الذي يتمسك بالحذر ويخاف الاهمال يتقدم في طريق السعادة كما تتقدم النار محطمة الحواجز الكبيرة والصغيرة التي تعترضها .

والكاهن الذي يعتصم بالاحتراس ويخشى الاهمال لا يستطيع ، بعد ذلك ، ان يقع في الخطيئة ، انه يقترب من النيبانا .

٣

وكما يحرص النابل على ان تأتي سهامه مستقيمة ، كذلك يقوّم الحكيم اعوجاج فكره المتقلب الذي لا يستقر على حال ، والذي نجد صعوبة في المحافظة عليه ومراقبته .

وكما تختلج السمكة عندما نلقيها خارج المياه هكذا يرتعش فكرنا عندما يغادر مملكة مارا[1] (اي مملكة الاهواء) .

الفكر جموح متقلب يسرح حيث يشاء ، ومن الخير ان نسيطر عليه لانه يؤمن السعادة متى رُوّض .

فليبقَ الحكيم سيد فكره ، فالفكر دقيق يسرح حيث يشاء ومن الصعب ان نمسك به .

والذين يتوصلون الى اخضاع هذا الفكر الشارد في الابعاد ، وحيداً لا جسم له ، مختبئاً في اغوار عميقة ، يتحررون من عوائق مارا[1] .

---

(١) مارا تعني حرفياً ، « الموت » . انها تجسيد كل ما هو شر ، وهي تعني كل اغواء ، وكل ما يربط الكائن بعجلة الوجود .

والحكمة لا تصل الى اوج كمالها عند من لا يستقر فكرياً ، وعند من يجهل القانون الحقيقي وتنقصه الثقة .

والرجل اليقظ هو ذاك الذي لا يعرف الخوف ، هو ذاك الذي تخطّى تخوم الخير والشر ولم يعد فكره العوبة في يد الشهوة ، تثيره وتشوشه .

والفكر المُوجّه توجيهاً خاطئاً يسيء الى صاحبه اكثر مما يسيء العدو الى عدوه او الانسان الحقود الى انسان حقود آخر .

اما الفكر المُوجّه توجيهاً صحيحاً فانه يؤدي لصاحبه خدمات اين منها خدمات الام او الاب او الاخ .

٤

ليعش الحكيم في قريته كما تجني النحلة رحيق الزهر دون ان تفسد لونه ورائحته .

لا تهتموا باخطاء الآخرين ولا بافعالهم ولا بتقصيرهم . عُوا بالاحرى اعمالكم الخاصة واهمالكم الخاص .

القول الجميل الذي يلقيه صاحبه دون ان يتقيّد به لا يثمر ، كالزهرة الجميلة البراقة التي لا رائحة لها .

والكلام الجميل الذي يتقيّد به صاحبه يثمر كالزهرة الجميلة البراقة التي تضوع رائحتها .

وكما اننا نستطيع ان نكوّن ، من رزمة الازهار ، عدة اكاليل ، كذلك على الانسان المولود في هذا العالم ان يقوم بعدة اعمال صالحة .

رائحة الازهار او الصندل او اللبان او الياسمين تنتقل مع الريح ولا تنتشر في الاتجاه المعاكس ، ولكن رائحة القداسة تجابه الريح وتنتشر في الاتجاه المعاكس . الرجل القديس ينشر عطر فضيلته في جميع الاتجاهات .

عطر الفضيلة يفوق رائحة الصندل او البخور او اللوتس او الياسمين بكثير .

رائحة اللبان والصندل ضعيفة ولكن الرائحة الذكية التي تفوح من الفضيلة تصل حتى الى عالم الآلهة .

وكما تبرز الزنبقة الجميلة الفواحة من كومة الاقذار الملقاة على حافة الطريق كذلك يتألق تابع بوذا السامي ويتلألأ حكمةً بين جماهير الناس العاديين العميان .

٥

طويل ليل المسهّد ، وبعيد طريق الذي اعياه المسير ، وطويلة دورة الحياة والموت بنظر الحمقى الذين يجهلون الحقيقة السامية .

اذا لم يُوفّق الباحث الى صديق يساويه او يفوقه فليكمل طريقه منفرداً ولا يتراجع ، اذ لا صداقة مع الاحمق .

يعتقد الاحمق المعذّب ان « هؤلاء الاولاد اولاده ، وان هذه الثروات ملك له . » والحقيقة اننا لا نملك ذاتنا ، فمن اين لنا الاولاد ، ومن اين لنا الثروات ؟

الاحمق الذي يدرك انه احمق ، حكيم في ادراكه ، اما الاحمق

الذي يحسب نفسه حكيماً فهو ، في الحقيقة ، مجنون .

الاحمق يجهل الحقيقة كما تجهل الملعقة طعم الحساء ، ويستمر جهله هذا حتى ولو امضى حياته كلها بصحبه رجل حكيم .

اما الانسان الذكي فانه يدرك الحقيقة بسرعة ، كما يدرك اللسان طعم الحساء . ولو لم يقض بصحبة الرجل الحكيم سوى دقيقة واحدة .

يتصرف الحمقى والمجانين حيال انفسهم كما يتصرف الاعداء حيال اعدائهم ، ويقومون باعمال نتائجها مرة المذاق .

العمل الذي لا نحسن القيام به هو ذاك الذي نأسف لحدوثه ونعاني نتائجه بالدموع والحسرات .

والعمل الذي نقوم به على احسن وجه هو ذاك الذي لا يثير اي ندم ، والذي نستقبل نتائجه بلذة ورضىً .

يعتقد الاحمق ان الشر الذي لم تظهر نتائجه بعد هو « ألذّ من العسل » . ولكن لا يلبث ان يعاني الالم الناجم عن هذا الشر عندما تظهر النتائج .

الحق يقال ان معرفة الاحمق تقوده الى الهلاك ، فهي تحطّم الناحية الخيّرة فيه عندما تحطم عقله .

٦

علينا ان نصادق من يدلّ على العيوب وكأنه يكتشف كنزاً .
علينا ان نتعلق بالحكيم الذي يرذل النواقص . الحقيقة ان معاشرة رجل كهذا خير لا شر .

لا تتخذ الاشرار والحقيرين اصدقاء لك . ولا ترافق الا الصالحين وانشد صداقة افضل الناس .

من ينهلْ من نبع العقيدة يَعِشْ سعيداً في طمأنينة الفكر . والحكيم يغتبط دائماً بالعقيدة التي يعلّمها الاشراف .

بناة الاقنية المائية يجرّون الماء حيث يريدون ، والنُبَّل يكيفون السهام كما يشاؤون ، والنجارون يخرطون الخشب على هواهم ، اما الحكماء فانهم يراقبون انفسهم .

وكما ان الصخرة الصامدة لا تقلقها الريح كذلك فان الحكماء لا يثيرهم اللوم ولا يزعزهم المديح .

وكما ان البحيرة العميقة تبدو صافية كذلك يصبح الحكماء واضحين بعد ان يستمعوا لتعاليم العقيدة .

قليلون هم اولئك الذين يجتازون النهر ويبلغون الضفة الثانية ، اما الاكثرية فتبقى على الضفة الاولى تذهب وتؤوب .

اما الذين يتقيدون بتعاليم العقيدة التي تُلقّن بطريقة صحيحة فانهم يجتازون ميدان الموت الذي يصعب اجتيازه .

٧

حمّى الاهواء لا تصيب ذاك الذي اكمل رحلته ، وتخلّص من كل همّ شاغل ، وتحرر من جميع النواحي ، وتخلّى عن كل ارتباطاته .

من روّض حواسه – كما يروّض الفارس جواده – وتخلّص من كل كبرياء ، وتحرر من جميع المطامع ، حسدته الآلهة نفسها .

الرجل المثقف الذي لا يتقلّب ولا يتلون شبيه بالارض ، بالدعامة، لا يثيره الغضب ، شفاف كبحيرة خالية من الأترج ، دورة الحياة والموت لا وجود لها بالنسبة له .

من تحرّر تماماً بفضل المعرفة الحقة وبلغ ، في وداعته واتزانه ، الكمال ، يتحلّى بافكار واقوال واعمال هادئة .

المكان الذي يقيم فيه الابرار — اكان ذلك في قرية او غابة او سهل او رابية — مكان جميل فتّان .

والغابات التي لا تجد فيها الجماهير متعتها ، رائعة جذابة ، ففيها يجد اولئك الذين تحرروا من اهوائهم ، الغبطة والفرح ، ذلك لانهم لا ينشدون لذات الحواس .

٨

كلمة واحدة معقولة ، تحمل الطمأنينة لمن يصغي اليها ، افضل من الف كلمة لا معنى لها .

وآية واحدة تضجّ بالمعاني ، وتؤمن الهدوء لمن ينصت اليها ، افضل من الف آية مجردة من المعنى .

نستطيع ، في المعركة ، ان ننتصر على آلاف وآلاف الرجال ، ولكن انبل المنتصرين هو ذاك الذي ينتصر على ذاته .

يوم واحد نحياه في الفضيلة والتأمل خير من مئة سنة نقضيها في الرذيلة والدعارة .

ويوم واحد نعيشه ونحن ندرك الحقيقة السامية خير من قرن نمضيه ونحن نجهل هذه الحقيقة .

٩

أسرع نحو الخير واحفظ نفسك من الشر ، فالنفس التي يتباطأ صاحبها في عمل الخير تغتبط للشر .

اذا اقترف احدكم الشر مرة فليحذر الوقوع فيه ثانية والتلذذ بما اتت يداه ، فتراكم الاعمال الشريرة يسبب الالم .

واذا اتى احدكم عملاً خيّرًا فليثابر على ذلك وليفرح بما صنعت يداه ، فتكدس الاعمال الصالحة يولد السعادة .

يستطيع الانسان الذي يأتي عملاً مضرًا ان يبقى سعيدًا طالما ان عمله السيئ لم يثمر بعد ، ولكنه لا يلبث ، عندما تثمر فعلته ، ان يذوق طعم الشقاء .

قد تمرّ بصاحب العمل الخيّر ايام سود طالما ان عمله لم يثمر بعد ولكنه يحظى ، عندما يثمر عمله ، بالنتائج السعيدة .

لا تتهاون في مقاومة الشر قائلاً في نفسك : « لن يصل اليّ » فكما يمتلئ الاناء قطرة قطرة كذلك يمتلئ الاحمق شرًا رويداً رويدًا .

لا تتخاذل في اجتذاب الخير اليك وانت تقول في نفسك : « لن يصل اليّ » فالاناء يمتلئ قطرة قطرة والحكيم يمتلئ خيرًا رويدًا رويدًا .

تجنبوا الشر كما يتجنب التاجر ، الذي يفتقر الى حراسة قوية ، سلوكَ الطريق المحفوفة بالاخطار ، محافظةً على الثروات الطائلة التي يحمل .

تجنبوا الشر كما يتجنب محب الحياة تناول السم .

وكما يعود علينا الغبار الذي نقذفه في اتجاه معاكس للريح كذلك يعود الشر على من يهين انساناً طاهراً بريئاً لا يشوبه دنس .

لا يستطيع الانسان ان يجد له ملجأ يقيه شر اعماله السيئة لا في طبقات الجو ولا في عباب المحيط ولا في نخاريب الصخور ولا في اي مكان في العالم .

ولا يستطيع الانسان ان يجد له ملاذاً يحميه من شبح الموت لا في طبقات الجو ولا في اعماق المحيط ولا في نخاريب الصخور ولا في اي مكان في العالم .

١٠

الكل يرتجفون امام العقاب ، والكل يخشون الموت . عليك ، عندما تقارن بين نفسك والآخرين ، ان لا تقتل احداً وان لا تدفع احداً لقتل امرىء آخر .

الجميع يرتجفون امام العقاب ، الحياة عزيزة على قلب الجميع ، وعليك ، عندما تقابل نفسك بالآخرين ، ان لا تقتل احداً وان لا تتسبب في مقتل احد .

من يسيء ، وهو يسعى وراء سعادته الخاصة ، الى المخلوقات التي تنشد السعادة ، لا يبلغ هذه السعادة في العالم الآخر .

ومن يسعى وراء سعادته الخاصة ولا يسيء بذلك الى المخلوقات التي تنشد سعادتها ، يحظى ، في العالم الآخر ، بهذه السعادة .

الكائن الفاني الذي لم يتخطّ الشك لا تطهره عادة السير عارياً ولا عادة ضفر الشعر ولا عادة ذر الغبار على الجسم ولا الصوم .ولا افتراش الارض ولا السجود ولا عملية تغطية الجسد بالرمال .

الرجل الهادئ ، الطاهر ، المدعو الى التحرر من التقليد ، والذي ينمّي راحة فكره ويراقب نفسه ولا يسيء الى اي مخلوق ، هذا الرجل هو برهمي وزاهد وكاهن حتى ولو بالغ في الاعتناء بهندامه .

١١

أية قهقهة مفاجئة تدوّي وأي فرح عظيم يغمر القلوب عندما تلتهم النار كل شيء ؟ ايها الغارقون في الظلمات ، ألا تفتشون عن قبس من نور .

لقد اتلف الاستعمال العربات الملكية الفخمة ، والجسم ستعتريه الشيخوخة ايضاً ، اما تعاليم الحكيم فلا تشيخ ابداً . وهكذا ينقل القديسون تعاليم الحكيم الى الصالحين .

الشيخوخة تصيب الجاهل كما تصيب الثور : وزنه فقط يزداد اما حكمته فتبقى كما كانت .

الذين لم يحيوا حياة الطهر ولم يجمعوا ، في شبابهم ، الثروات ، يتلاشون كما يتلاشى مالك الحزين العجوز القابع بالقرب من بحيرة لا سَمَك فيها .

١٢

ابدأ اولاً بنفسك فاسلك الصراط المستقيم . بعد ذلك تستطيع ان تسدي النصحة للآخرين .

على الرجل الحكيم ان لا يفسح المجال امام الآخرين ليوجهوا اليه اي لوم .

اذا اتبعنا النصائح التي نسديها للغير واعتمدناها في تكوين ذاتنا لاستطعنا ، وقد سلكنا الاتجاه الصحيح ، ان نوجّه الآخرين .

الحقيقة ان الانسان حارس نفسه . هل هناك حارس آخر ؟ عندما نتحكم باهوائنا نفوز بحارس يصعب الفوز به .

الشر الذي ترتكبه الذات ويتولد فيها وينشأ عنها ، يسحق صغار النفوس كما يسحق الماس الجوهرة .

من السهل ان نرتكب الخطأ والشر بحق ذواتنا . ومن الصعب ان نعمل العمل الصالح النافع .

الاحمق الذي يستند الى آراء خاطئة فيحتقر تعاليم الكائنات السامية والرجال الفاضلين والعادلين ، هذا الاحمق يخلق نتائج تتسبب في فنائه كما يثمر شجر الخيزران ثماراً تتسبب في القضاء عليه .

يتدنس الانسان بالشر الذي يرتكبه ويتطهر بابتعاده عن الشر . فالطهارة والدنس قائمان في ذاته . ولا يستطيع احد ان يقوم بتطهير شخص آخر .

١٣

من كان مهملاً ثم اصبح ، بعد ذلك ، حذراً اضاء الارض كما يضيئها القمر البارز من بين الغيوم .

من محت اعماله الصالحة الشر الذي سبق واتاه ينير الارض كما ينيرها البدر المطلّ من بين السحب .

العالم اعمى . قليلون هم الذين يبصرون .

العصافير التي تتفلت من الشباك قليلة — وقليلون هم الذين ينطلقون نحو الاخدار السماوية .

١٤

تنحصر تعاليم البوذيين في الامور التالية : الامتناع عن عمل الشر ، التمرس في عمل الخير ، تطهير النفس .

الصبر هو افضل الطرق التقشفية العملية . والنيبانا هي ، بنظر البوذيين ، الحالة السامية . من يسيء الى الآخرين ليس حبيساً ، ومن يرهق الغير ليس ناسكاً .

١٥

نعيش بين اناس يملأ الحقد قلوبهم ، اننا سعداء لان قلوبنا لا تعرف الحقد . فلنبق على هذه الحال متحررين من الحقد في وسط هؤلاء الحاقدين .

اننا نعيش في وسط شعب يتألم . ونحن سعداء لاننا لا نعرف الألم . فلنبق على هذه الحال احراراً من الألم ، في وسط هؤلاء الذين يتألمون .

اننا نعيش في وسط جماهير قلقة ، ونحن سعداء لاننا لا نشعر بالقلق . فلنبق على هذه الحال احراراً من القلق في وسط هؤلاء القلقين .

اننا لا نملك شروى نقير . والحق اقول : اننا سعداء بذلك . اننا نقتات بالفرح كما تقتات الآلهة المتألقة .

الذي ينتصر على خصمه يثير الحقد في قلب عدوه المهزوم . والمغلوب يضجع وهو يعاني البؤس . اما الرجل الوديع فانه يعيش في راحة تامة لانه اهمل ، في آن واحد ، النصر والهزيمة .

لا نار اشد تأججاً من نزعة الانسان الى الملذات الحسية . ولا شقاء اعظم من الحقد ، ولا بؤس يوازي الشقاء الذي تولّده عناصر الوجود ، ولا غبطة اسمى من الطمأنينة التي توفرها النيبانا .

العافية اكبر كسب ، والقناعة اكبر كنز ، والصديق المخلص افضل نسيب ولكن النيبانا اسمى غبطة .

عندما يذوق الانسان عذوبة العزلة والطمأنينة يتحرر من الألم والشر ويشرب حلاوة الحقيقة .

١٦

من شهوة الحواس ينشأ الحزن والخوف . فاذا تحررنا من شهوة الحواس لم نشعر بالحزن والخوف .

يتولد الحزن والخوف من الجشع . فاذا تحررنا من الجشع لم نعرف الحزن او الخوف .

١٧

القائد ، بنظري ، هو ذاك الذي يكظم الغيظ المتوثب كما يكبح الفارس جماح العربة المندفعة . اما البقية الباقية فتكتفي بالامساك بأعنة الخيول .

إنتصر على الغضب بالحب وتغلّب على الشر بالخير . استمل البخيل بالسخاء والكذّاب بالحقيقة .

قل الحق ، ولا تستسلم لثورة الغضب ، تصدق من القليل الذي لديك ولا تدع السائل يعود من لدنك خائباً . بهذه الصفات الثلاث يستطيع الانسان أن يقترب من الآلهة .

منذ زمن طويل واولئك الذين يمضون اوقاتهم صامتين يتعرضون للانتقاد ، كما وان الذين يثرثرون يطالهم النقد كما يطال اولئك الذين يتميزون بالاعتدال في الكلام . وهكذا لا ينجو كائن في هذا العالم من الانتقاد .

لم يوجد ولا يوجد ولا يمكن ان يوجد شخص يتعرض للوم فقط او لمديح فقط .

الحكماء الذين يراقبون اعمالهم واقوالهم وافكارهم يخضعون في الحقيقة لمراقبة دقيقة .

١٨

وكما يصهر الصائغ الفضة الخام ويصفّيها هكذا يتطهر الرجل الحكيم ، رويداً رويداً ، ومن وقت لآخر ، من ادناسه .

وكما يتأكل الحديدَ الصدأ كذلك تقود الاعمال السيئة الانسان الى لجة الألم .

الحياة سهلة بالنسبة للكائن الوقح ، وللغافل الذي يشبه الغراب ، وللخبيث ، وللحذلق المدعي ، وللدنس .

ولكنها صعبة دائماً بالنسبة للمتواضع وللذي ينشد الطهارة باستمرار ، وللمجرد عن كل غرض ، وللشريف ، وللرجل الذي تتميز حياته بالاستقامة ورأيه بالوضوح .

لا نار كالطمع ولا ايثاق كالحقد ولا حبائل كالوهم ولا تيار كالشهوة .

عيوب الآخرين نكتشفها بسهولة اما عيوبنا فمن الصعب ان نبصرها . نواقص الغير ننقيها كما ننقي سنابل القمح ، اما نواقصنا فاننا نخفيها كما يخفي الغشاش عملية لم يحالفها النجاح .

١٩

الثرثرة لا تجعل صاحبها حكيماً . الحكيم هو الرجل الرؤوف المحب الذي لا يعرف الخبث .

والوقور ليس من ابيض شعره ، فهذا لم يتقدم الاّ بالعمر وباستطاعتنا القول انه شاخ دون فائدة .

الانسان الذي يستحق ، في الواقع ، لقب وقور ، هو ذاك الحكيم الذي تحرر من كل دنس وملك الحقيقة وتميّز بالاستقامة واعتمد مبدأ اللاعنف وسيطر على اهوائه .

اذا كان صاحب الكلام اللطيف والمظهر الجميل حسوداً بخيلاً كاذباً فانه لا يستحق التكريم .

يستحق التكريم من انتفت قابليات الكذب والبخل والحسد عنده وأقتلعت من جذورها ، ومن تخلص من الاهواء فاصبح حكيماً .

ليس ناسكاً من حلق شعر رأسه وبقي جموحاً كذاباً ، اذ كيف يستطيع ان يكون زاهداً وهو المشبع بروح الشهوة والطمع ؟

نستطيع ان نـــدعو من تحرر من كل شر صغير او كبير زاهداً ، ذلك لانه تغلب على كل شر .

من يسيء معاملة المخلوقات الحية ليس شريفاً ،

يستحق لقب شريف من يعطف على جميع المخلوقات .

٢٠

افضل الأزقة الزقاق ذي التفرعات الثمانية ، وافضل الحقائق الحقائق الاربع ، وافضل الحالات حالة التحرر ، وافضل الرجال الرجل المبصر المدرك .

الحق يقال ان هذا هو الزقاق الحقيقي وما من سبيل آخر يقود الى تطهير النظرة . اسلكوا هـــذا السبيل وستكون هذه نهاية مارا (الموت) ، ستتخلصون من الالم نهائياً اذا سلكتم هذا الطريق . لقد تأكدت من فائدته بعد ان استأصلت سهام الألم .

الجهود عليكم ان تبذلوها بانفسكم فالبوذيون يرشدونكم الى الطريق فقط .

لا يتوصل الى التخلص من عوائق مارا الا من طبق هده التعاليم واسترسل في تأملها .

عندما ندرك ، بفضل الحكمة ، ان « جميع القضايا المشروطة متقلبة » تقزّ نفوسنا من الالم . هذا هو طريق الطهارة .

وعندما ندرك ، بواسطة الحكمة ، ان « جميع الامور المشروطة مشبعة بالألم » تقزّ نفوسنا من الالم . هذا هو طريق الطهارة .

وعندما ندرك ، بعين الحكمة ، ان « جميع الاشياء (بلا استثناء) تفتقر الى ذات » تشمئز نفوسنا من الالم . هذا هو طريق الطهارة .

وعندما يحين وقت النشاط والعمل فلا يقوم كل شاب وكل قادر بواجبه ويستسلم للكسل ويظهر ضعفاً وغفلة ويبدو مشلول الارادة فانه لن يجد طريق الحكمة .

عليكم ، اذا اردتم بلوغ الطريق الذي تحدث عنه الحكماء ، ان تتطهروا بالوسائل الثلاث الآتية : ان تسهروا على كلامكم فلا تلقونه جزافاً ، ان تراقبوا افكاركم ، ان تمتنعوا عن القيام باعمال سيئة .

٢١

الفاضل الذي يتمتّع بثقة الجميع وبثروة طائلة وصيت حسن هو موضوع احترام الناس اينما حل .

٢٢

جهنم مصير الكذاب ومقر من يعمل وينكر عمله ،
مصيرهما واحد غداً وقد قاما باعمال حقيرة .

من الافضل ان ننصرف عن القيام بالاعمال السيئة لان العمل السيئ يسبب لصاحبه العذاب .

من الخير ان نأتي الأعمال الصالحة لان العمل الصالح يجنب صاحبه كل عذاب .

من يستحون مما لا يسبب الحياء ولا يخجلون مما يولّد الخجل ، هؤلاء ، الذين يدينون باراء خاطئة ، يصلون الى حالة الشقاء .

الشقاء مآل الكائنات التي تعتنق الافكار المغلوطة فتخاف مما لا يخيف ولا تخشى مما يفزع .

الذين يستسلمون للآراء المغلوطة فيرون الشر حيث لا شر ولا يبصرون به عند وجوده هؤلاء يصلون الى حالة شقية .

السعادة مصير الذين يعتنقون الافكار الصحيحة فيدركون الشر كشر والخير كخير .

٢٣

وكما يتحمل الفيل المحارب السهم المنطلق من القوس كذلك اتحمل انا الاهانة بصبر .

لا شك في ان اكثرية الناس فاسدة .

الفيل المدرب يمشي الى المعركة طائعاً فيعلو ظهره الملك .

افضل الناس المطيع الذي يتحمل الاهانة .

البغال المروضة ، والخيول الاصيلة حقاً السندية المحتد وفيلة الحرب الكبيرة كلها ممتازة لكن الرجل الذي يراقب نفسه افضلها جميعاً .

من الخير ان يكون لك صديق معوان وان ترضي بكل ما يحدث وان لا تفسح للحزن مكاناً في نفسك ، وان تكون ، عند الموت ، قد اتيت اعمالاً صالحة .

من الخير ان تمارس الفضيلة طوال ايام حياتك ، وان تحتفظ بثقة راسخة ، وان تتحلّى بالحكمة ، وان لا تأتي اي شر .

٢٤

الشجرة المقطوعة تفرّخ ثانية اذا لم تُتلف جذورها ، هكذا الألم، يتفجّر باستمرار طالما اننا لم نقضِ على الجشع.

الرجال الذين يسيطر عليهم الطمع يتراكضون ، وفي كل اتجاه ، كالارانب المطاردة . وعندما تعترضهم العوائق يشعرون مرة اخرى ، ولامد طويل ، بالالم .

ليست قيداً قوياً تلك السلاسل المصنوعة من الحديد او الخشب او القنب . القيد القوي هو ، كما يقول الحكماء ، التعلق بالحلى والزين والاولاد والزوجات . ومع ان التحرر من هذا القيد صعب فاننا نجد بعضهم يحطمه ويختار حياة العزلة ويهمل ملذات الحواس دون ان يلتفت الى الوراء .

بعضهم يسجن نفسه في شباك التهالك على اللذة كما تسجن العنكبوت نفسها في شُعّها . الحكماء يهملون حتى هذه الامور ، ويخلفون كل هم دون ان يلتفتوا وراءهم .

هبة الحقيقة تفوق كل هبة اخرى ، وطعم الحقيقة يفوق اي طعم آخر ، والفرح بالحقيقة يفوق اي فرح آخر ، واطفاء الشهوة يقهر كل ألم .

٢٥

من الخير ان تراقب نظرك وسمعك ولسانك وحاسة الشم عندك .

من الخير ان تراقب جسدك واقوالك وفكرك . المراقبة نافعة في جميع الحالات . الكاهن الذي يراقب ذاته بمختلف الطرق يتحرر من كل ألم .

الكاهن الذي يراقب لسانه ويزن كلامه ولا ينتفخ كبرياءً يشرح العقيدة وهو يوضحها . كلماته عذبة لطيفة .

وعندما يتمشّى الكاهن على تعاليم العقيدة ويفرح بها ويتأمل فيها ويتذكرها فانه ، عندما يسلك هذا السلوك ، يرسخ فيها بقوة واستمرار .

والكاهن الذي يحيا حياة حب خيّر ، ويُسرّ بتعاليم البوذا ، يصل الى السلام الذي تؤمنه النيبانا والى النهاية الهادئة السعيدة التي يتميّز بها الوجود الكامل .

لا تركيز لمن يفتقر الى الحكمة ، ولا حكمة لمن ينقصه التركيز . ومن يجتمع فيه التركيز بالحكمة يكون ، في الواقع ، قريباً من النيبانا .

الكاهن الذي يقيم في منزل منعزل ويهدئ من روع فكره يشعر ، عندما يدرك العقيدة الواضحة ، بفرح يفوق فرح الانسان .

وعندما يفكّر في كيفية نشوء مختلف مواد الوجود واختفائها يشعر بالسعادة والفرح ، وهذا هو رحيق الحكماء .

كل واحد منا يحرس نفسه اذ من غيرنا يستطيع ان يحمينا ؟ راقب نفسك اذاً كما يتحكم التاجر بحصانه الجموح .

وعندما يملأ الفرح قلب الكاهن وتحمله رسالة بوذا فانه يصل الى حالة الطمأنينة والهدوء والى السكون السعيد الذي يتمتع به اولئك الكاملون .

حتى الكاهن البوذي الشاب الذي يكرّس نفسه لعقيدة البوذا السامي، حتى هذا ، ينير هذا العالم كما يضيئه القمر البارز من بين الغيوم .

الجُزءُ الثَّالث

الدِّياناتُ الصِّينيَّة

آ - الديانة الصينية القديمة

كانت عادة احترام الآباء والأجداد وعبادتهم وتقديسهم في اساس الديانة الصينية القديمة التي قامت ، الى حد بعيد ، على طبقية اقطاعية عميقة الجذور تعدت الامور الاجتماعية الصرف الى الماورائيات . فقد كان هناك طبقتان متميزتان : طبقة النبلاء والاشراف وطبقة عامة الناس . لافراد الاولى روحان : روح مادية جسدية واخرى سامية . في حين اكتفى افراد الشعب بالروح المادية .

الروح المادية تدعى ، اثناء الحياة ، بو « p'o » وبعد الموت كووي « kouei » (ومعناها العائد او الشيطان) ، وتدعى الروح السامية ، اثناء الحياة ، هووين « houen » وبعد الموت شين « chen » (ومعناها الروح او الاله) . واذا اجتمعت الروحان ، المادية والسامية ، كانت الحياة ، واذا افترقتا كان الموت .

ولكن ما مصير الارواح بعد الموت ؟

يعتقد الصينيون القدامى ان العامة كانوا يتحولون ، بعد الموت ، الى كووي لا خصائص مميزة لها ، تقيم تحت الارض في منطقة واقعة في اقصى الشمال تسمى الينابيع الصفراء ، وقد ورد في معتقدات الفلاحين القديمة ان ارواح اجدادهم الفلاحين الموتى كانت تعود من تلك المنقطة ، خلال فصل الربيع ، لتتجسد بمناسبة الاعياد الربيعية ، اعياد الخصب الكوني .

اما الاشراف والنبلاء ، الذين كانت لهم ، الى جانب الروح المادية ، روح سامية ، فقد كانوا يخلدون لان شخصياتهم كانت قوية . ولكن خلودهم لم يكن خالداً بل كان يمتد الى عدد من الاجيال فقط يحدده البروتوكول ، وكانوا يدخلون مع عامة الناس ، في جماعة الكووي غير المميزة ، عندما كان احفادهم ينقطعون عن القيام بمراسم عبادتهم وتكريمهم .

وفي حين كانت ارواح عامة الناس تقيم ، بعد الموت ، تحت الارض كانت ارواح الاشراف السامية ، اي الشين ، تعود الى السماء حيث تحتل ، الى جانب سيد الاعالي، المكان الذي يتفق والمكانة التي كانت تحتلها اثناء الحياة. فارواح الملوك مثلاً تقوم عن يمين السيد وشماله . اما روحهم الثانية اي « البو » فتقيم قريباً من الجسد وفي منطقة الينابيع الصفراء .

الآلهة الصينية القديمة

١ ــ السماء : كانت السماء تحتل المرتبة الاولى بين الآلهة الصينية ويطلق عليها اسم سيد الاعالي او الملك . وكان من حق الملك وحده ان يترأس الحفلة التي تقدم خلالها ، لهذا السيد ، شعائر العبادة لانه كان ، الى حد بعيد ، ممثله على الارض . وكان الصينيون يعتبرون ان الملك يتمتع بفضيلة خاصة تدعى التاو او التاوتو وهي من نوع من السلطان السحري الديني الذي يمتاز بالعبقرية والتفوق ، والذي يعتبر اصل النظام الاجتماعي والكوني . وكانوا يعتقدون ان حسن سير النظام الكوني وقف على سلوك الملك ، فاذا ساء هذا السلوك عبّرت السماء عن غضبها على ذلك بالجفاف والفيضانات والامراض ؛ وعلى الملك عندئذ ان يتحمل لوحده غضب السماء وان يكفّر بنفسه عن اخطائه التي ادت الى اضطراب نظام الطبيعة ، على اعتبار انه مسؤول امام السماء . اما اذا كان سلوك الملك فاضلاً وصالحاً فان السماء تعامله عندئذ وكانه ابنها . ومن هنا نشأت الاسطورة الدينية التي كانت تعلم ان كل واحد من ملوك الصين هو ابن السماء على اعتبار ان السلالات الملكية الصينية كانت تنتسب اسطورياً الى جد أول كان ، بالفعل ، ابن السماء ، اذ كانت ولادته اعجوبة : فقد حملت به وانجبته ام عذراء لم يمسها بشر .

٢ ــ الارض : كانت الارض تحتل المرتبة الثانية ، ولم يكن الملك يقوم بنفسه بتقديم القرابين لهذا الاله بل كان يترك لكل امارة امر تكريم اله ارضها والهتها الزراعية وجبالها وانهرها .

وكان يرمز الى اله الارض ، في البدء ، بشجرة مزروعة على اكمة ثم ما لبثت الشجرة ان استبدلت بحجر ، ثم بطاولة خشبية صغيرة ينقلها رئيس المقاطعة او الامير معه عندما يذهب للحرب .

ولم تكن آلهة الارض على مستوى واحد ، فقد كان اله الامارة الاقوى اسمى مرتبة من آلهة الامارات الاخرى ، ولكنها كانت ، جميعها ، قاسية عنيفة تجسد الاخلاص والامانة الاقطاعية . والى جانب كل اله ارض اله حصاد ترمز مذابحهما الى مقاطعة السيد او امارة الامير والى الوطن .

والى جانب آلهة الارض العامة آلهة محلية هي الجبال والانهار يقوم الاسياد والرؤساء والامراء بتكريمها ، وآلهة عائلية صغيرة كآلهة المنزل وآلهة الابواب الداخلية وآلهة الابواب الخارجية وآلهة الآبار .

المصادر الصينية

كانت الكتب المدرسية « king » هي التي نقلت الينا افكار الصين القديمة .

وهذه الكتب مقدسة بالنسبة للصينيين على اعتبار انها تضم عقيدة القديس الوطني الكبير كونفيشيوس . بيـد ان الغموض يحيط ، في اكثر الاحيان ، بمدلولات هذه الكتب لدرجة ان فهمها صعب دون الاستعانة بتلك التعليقات التي جاءت بها اجيال مختلفة من العلماء الصينيين .

اهم هذه الكتب :

١ — **كتاب التحولات** « yi king » : وهو اصعبها ويتناول بالبحث الألوهة ، وقد لعب دوراً كبيراً في تراث الصين الديني الفلسفي لانه استخدم كاساس للتأملات الماورائية . وهو عبارة عن سلسلة مؤلفة من ٦٤ مجموعة تتألف كل واحدة منها من ستة اسطر بعضها كامل وبعضها ناقص وترافقها تفسيرات عرافية . وترمز المجموعات الاولى الى مبدأ الكون الايجابي « le yang » بينما ترمز الثانية الى المبدأ السلبي « le yin » . ولهذين المبدأين اهمية كبيرة بالنسبة للفكر الصيني على اعتبار ان تصنيف الاشياء وتكوينها جرى على اساسها . وبما ان الكل الكبير

« Le Grand-Tout » مؤلف من ين ويانغ ، فقد دعي تناوب هاتين الحالتين التاو « Le Tao »)، وهو تعبير آخر مهم جداً بالنسبة للصينيين ولقاموسهم الفلسفي الديني ، وقد ساد الاعتقاد ان حياة الكون ونظامه وتعاقبه هي نتيجة هذا التناوب .

٢ — **كتاب التاريخ** « Chou king » وهو مجموعة من المستندات والاعلانات والخطب يحوم الشك حول صحة نصف ما تضمنته . بيد ان هذا الكتاب يحوي فصلاً جديراً بالاهتمام عنوانه القاعدة الكبرى « Hong fan » وهو اقدم بحث فلسفي صيني ويضم عرضاً لمجمل المعرفة على شكل مقولات عددية ، ويرمز احد الاعداد — من ١ الى ٩ — الى كل جزء من اجزاء المعرفة . فالجزء الاول مثلاً مخصص للعناصر الاساسية الخمسة ويقابل كل عنصر منها عدد . وهكذا يقابل عنصر الماء ، الذي هو رمز الشمال ، المذاق المالح والحركات ؛ ويقابل عنصر النار ، الذي هو رمز الجنوب ، المذاق المر والكلام ؛ ويقابل عنصر الخشب ، الذي هو رمز الشرق ، الحامض والنظر ؛ ويقابل عنصر الارض ، الذي هو رمز الوسط ، اللطف والارادة .

٣ — **كتاب الاشعار** « Che king » وهو مجموعة من القصائد، ويضم الجزء الاول منه قصائد شعبية جمعت ونسقت حسب المناطق التي انطلقت منها . اما الجزءان الثاني والثالث فيضمان اناشيد طقسية كانت تتلى في بعض الاحتفالات المهمة ، ويضم الجزء الرابع الاناشيد التي تدور حول الذبيحة .

٤ — **الكتب الطقسية الثلاثة :** Li-ki, Yi-li, Tcheou-li ، التي تتضمن نصوصاً تعود الى قرون مختلفة (من القرن الرابع الى القرن الاول قبل الميلاد) .

مصادر المختارات

نقلت هذه المختارات الى العربية عن الترجمات الفرنسية التي قام بها ، لهذه الكتب المدرسية ، الاب كوفرور R. P. Couvreur . كذلك جرت الاستعانة بترجمات كل من السادة : م. كرانيه M. Granet ، وا. شافان E. Chavannes ورينيه كروسيه R. Grousset . وقد وردت جميع هـــذه الترجمات في كتاب *La littérature religieuse* الذي نشر باشراف الاستاذين جوزف شين ورينيه كروسيه .

١ ـ الامير ميلله

كيانغ يوان[١] هي التي انجبت اول مولود من سلالتنا[٢].
كيف صنعت لتنجبه ؟
كانت تقدم الذبائح والقرابين لترزق اولاداً
واقتفت اثر السيد السامي
وانتابتها الرعشة
واقامت في مكان منعزل
ثم حبلت به
وعادت بعد ذلك الى العزلة التي تفرضها الطقوس الدينية على كل امرأة حبلى .
وعندما اكتملت اشهر حملها وضعت بكراً كالحمل دون ان تصاب بخرق او صدع او ينتابها الم او وجع .
فقد كان الطفل سماوياً .
ألم يكن السيد السامي راضياً عن ذلك ؟
ألم يقبل القرابين التي رفعتها كيانغ يوان ؟
لقد وضعت طفلها ، الامير ميلليه ، دون الم .
وقامت على حراسة الطفل المرمى في الزقاق الثيران والخراف
واجتمع الحطابون في الغابة الواطئة حول هذا الطفل المُهمل
وعلى الجليد قام عصفور يحتضن الطفل المتروك

---

(١) كيانغ يوان Kiang Yuan : امرأة من سلالة امراء تاي T'ai كانت الزوجة الاولى للامبراطور الاسطوري كاوو ـ سين الذي يعتبر اله الحياة الزوجية .

(٢) اي جد عائلة تشاوو Tcheou الملكية .

ولكن العصفور لم يلبث ان تركه وطار
واخذ الامير ميلليه يصرخ :
لنصغِ اليه من بعيد
لنصغِ اليه جيداً
صراخه يملأ الطريق .
ها هو يدب على يديه ورجليه
الحق يقال انه عظيم ورائع .
وزرع لوبياء كبيرة كي يقوم بأوده
وكان زرعه يتماوج في الهواء كالرايات
وازهرت حقوله
ونجح قنبه وقمحه وتكاثرا
ونما اليقطين والخيار بشكل غريب .
من فضائل هذا الامير الفلاح انه كان يساعد الطبيعة :
كان يفرد الاعشاب الكثيفة
ويبذر الحبوب الصفراء ،
ونبتت هذه البذور واينعت
وبرز الزرع بعد بذاره
ونما ساقه
وتكوّنت سنابله
وكانت الحبة قاسية ممتلئة
وانحنت السنابل تحت وطأة الحب
وعندها حصل على ارض التاي[1] .

---

(١) التاي T'ai : عائلة والدته ، وقد ورث ارض التاي عن امه .

ثم وزّع بذاراً ممتازاً من الدخن الاسود البسيط ومن الدخن الاسود المزدوج ومن الذرة الحمراء ومن الذرة البيضاء
وبُذر الدخن البسيط والدخن المزدوج في كل مكان
ثم حُصد وجُمع كُوَماً
وبذرت الذرة البيضاء والذرة الحمراء في كل مكان
وحملت على الاكتاف والظهور
لتقدم الذبيحة التي انشأها الامير ميلليه
ولكن كيف تتم ذبيحتنا ؟
بعضهم يقشّر الذرة
والبعض الآخر يفرغ الجرن
بعضهم يذرو
والبعض الآخر يدوس السنابل بالاقدام
يُغسل الحب ثم يُطبخ
يُسعى بعد ذلك وراء المشورة
ويُتطهر
وتؤخذ الارطماسية وتمزج بقربان الدهن
ويُقدم تيسٌ لاله الطريق .
ويُطبخ جزء من اللحم
ويُشوى جزء آخر
املاً في ان تكون السنة القادمة خصبة وافرة .
لنملأ كؤوس الخشب
كؤوس الخشب وآنية الفخار
ولترتفع رائحة الذبيحة
فيتنشقها السيد الأعلى بفرح

اي عطر هو هذا وكم يدوم !
ابتدع الامير ميلليه الذبيحة
وقام الجميع بتقديمها ، دون خطأ او اهمال ، منذ ذاك الوقت حتى ايامنا هذه .

(Che King, Chengmin, Couvreur, p. 347).

٢ _ الملك شووين

حرث الملك شووين[1] جبل لي[2] فتنازل جميع سكان الجبل عن ممتلكاتهم المحاذية لحدود حقوله .

واصطاد في مستنقع ليي[3] فوهبه المقيمون على ضفافه قسماً من الاراضي التي تقوم عليها منازلهم .

وقام ، على ضفة النهر ، بصنع آنية فخارية فجاءت الادوات المنزلية المصنوعة على ضفة النهر خالية من كل عطل .

ونشأت ، في المكان الذي كان يقيم فيه ، وخلال سنة واحدة ، قرية ،
وتحولت القرية ، بعد سنتين ، الى ضيعة كبيرة
واستحالت الضيعة الكبيرة ، بعد ثلاث سنوات ، مدينة .

(Che Ki, Chavannes, I, p. 72).

---

(١) شووين Chouen : امبراطور اسطوري يعتبر مثال الملك الحكيم .
(٢) جبل لي Li : جبل لم يستطع احد تحديد مكانه .
(٣) مستنقع ليي Lei : مستنقع لم يستطع احد تحديد مكانه .

٣ ـ فضيلة الملك تشمل الحيوانات

كان تانغ[1] خارجاً من منزله عندما ابصر في الحقل شبكة ممدودة من الجهات الاربع وقد كتب عليها الدعاء التالي : « ليأت الجميع من اربع جهات العالم ، ويدخلوا شبكتي » .

فقال تانغ : « سيقعون ، عن بكرة ابيهم ، في قبضتي »

ثم نزع ثلاث جهات من الشبكة وكتب عليها الصلاة التالية : « ليذهب ناحية الشمال من اراد ذلك وناحية اليمين من اراد ذلك ، اما الذين سئموا من الحياة فليدخلوا شبكتي » . وادرك الاقطاعيون هذا وقالوا : « فضيلة تانغ شاملة تمتد الى العصافير ورباعيات الاقدام . »

(Che Ki, Chavannes, p. 180).

٤ ـ فضيلة الملك تفرض السلام

نشأ ، في ذاك الحين ، بين سكان يو وجوي[2] ، خلاف لم يتوصلوا الى فضّه ، فذهبوا يحتكمون الى الامير تشاوو[3] . وعندما بلغوا اراضيه لاحظوا ان الفلاحين لا يختلفون ابداً على حدود حقوقهم ، وان الشعب تعوّد الرجوع الى الشيوخ لحل خلافاته . واحتار اهالي يو وجوي في تعليل ذلك ولم يكونوا بعد قد قابلوا زعيم الغرب. وقال بعضهم

(١) تانغ T'ang : مؤسس سلالة يين Yin التي سبقت سلالة تشاوو Tcheou .

(٢) يو وجوي Yu et Joei : مدينتان تقعان حالياً في الشان ـ سي Chan-Si .

(٣) تشاوو Tcheou : هو الملك ون Wen الملقب بزعيم الغرب ووالد مؤسس سلالة تشاوو .

لبعض: « ان سكان بلاد تشاوو يعتبرون موضوع نزاعنا امرًا مشيناً فلماذا نوالي السير لمقابلة الامير ؟ لن نفوز ، عند مقابلتنا له ، بسوى الخجل . »

وهكذا قفلوا راجعين لتوهم وافترقوا بعد ان تنازل بعضهم للبعض الآخر .

وعندما سمع الاقطاعيون بما جرى قالوا : « لا شك في ان زعيم الغرب قد فاز بالوصاية الالهية . »

(Che Ki, Chavannes, p. 219).

٥ ـ التجارب التي مر بها الملك شووين[١]

عندما ترغب السماء في ان تَكِلَ الى احد الناس امر القيام برسالة كبرى تبدأ باخضاع قلبه وارادته لتجارب قاسية ، وترهق اطراف عضلاته وعظامه بالتعب ، وتسوم اعضاءه وجلده جوعاً ، وتعري جسده ، وتزرع العقبات في طريق مصالحه ، وتخلق التشويش فيها . وهكذا تثير ، بهذه الطريقة ، افكاره ، وتقسّي كائنه ، وتزوده بما كان ينقصه حتى الآن .

(Mong-tseu, 6,2).

---

(١) لقد مر الملك الاسطوري شووين «Chouen» بتجارب قاسية قبل ان يختاره ياوو « Yao » لخلافته . وقد فرض عليه هذه التجارب ابوه وامرأة ابيه اللذين كانا يحاولان القضاء عليه تارة بواسطة النار وطورًا بواسطة الماء . ورغم هـــذه المحاولات بقي شورين مثال الاخلاص البنوي والتقى وبرهن بذلك على انه الشخص الذي اختارته السماء .

٦ ـ قسوة السماء

كانت المجرة مترامية الاطراف
تدور في السماء وهي تلمع
قال الملك : آه
ما خطيئة بشر اليوم ؟
قذفتهم السماء بالأحزان والاضطرابات
وتتالت عليهم سنوات القحط .
كرّمتُ جميع الآلهة دون استثناء
ولم ابخل بالقرابين اقدمها على مذبحها .
قدمت جميع الواح اليشم
ولم ابخل باللوح الاخير
فلمَ لا تستجيب الآلهة لي ؟
بلغت درجة الحرارة الذروة
وثقلت علينا وطأة القيظ ،
لم انقطع عن تقديم القرابين الطاهرة :
في الضاحية وفي الهيكل .
قدمت قرابيني للآلهة العليا
وللسفلى
ودفنتها .
كرّمت جميع الآلهة بلا استثناء .
لم يعد للامير ميلليه اي نفوذ
وبقي سيد الأعالي بعيداً .
لِمَ لا يحل بي وحدي هذا الخراب والحزن اللذين يعمّان هذه الارض ؟

(Che King, Yun han, Couvreur, p. 391).

٧ _ ايتها السماء

ايتها السماء المعظمة ، الصعبة المنال
انت امنا وانت أبونا
لم نرتكب جريمة
ولم نأتِ خطأ
ومع ذلك فنحن ضحية فوضى تجاوزت الحدود .
كفّي ايتها السماء الجليلة عن العنف.
أسبُر أغوار ذاتي
فلا اجدني مجرماً .
ايتها السماء المعظمة
قسوتك بلغت اقصى حدود الشدة .
أسبر أغوار ذاتي
فلا ألقى خطيئة .

(Che King, K'ia oyen. Couvreur, p. 252).

٨ _ اله التراب

على مذبح اله التراب
تُقدم الذبائح للارض
ويَمجّد تأثير ألين[1]
عند اسفل جدار السور الشمالي
يقف الامير
مديراً وجهه ناحية الجنوب

(١) الين Le Yin : مبدأ الكون السلبي .

ليصبح امام الين وجهاً لوجه .
وجرى اختيار يوم يحمل ميزة كيا[1]
ليكون اليوم الرئيسي .
على الاله الكبير
اله ارض ابن السماء
ان يتعرّض للصقيع والندى
للريح والمطر ،
حتى يكون على صلة بانبعاثات السماء والارض .
وعلى اله ارض الامارة ،
الامارة التي سقطت عن مقامها الاصلي ،
ان يختفي تحت معالم بناء ما
فلا يتعرّض
بهذه الطريقة
لتأثير اليانغ[2] السماوي .
لم يبقَ لاله ارض بو[3] سوى نافذة واحدة مفتوحة على الشمال
لكيلا يتلقى نوراً غير نور الين .
على مذبح التراب يؤلّه بطش الارض المقدس ،
الارض تحمل جميع الكائنات
ومن السماء تتدلى النجوم .
الارض مصدر جميع الثروات

---

(١) كيا Kia : المرحلة الاولى من دورة مؤلفة من ١٢ ميزة تستخدم لتحديد الايام والسنوات .
(٢) اليانغ Le yang : مبدأ الكون الفعّال .
(٣) بو Po : العاصمة القديمة لسلالة ين Yin .

والسماء مصدر القواعد التي ، على اساسها ، تتم الاعمال .
وهكذا نبرهن عن احترامنا للسماء
وعن حبنا للارض
ونعلم الشعب ان يشكرهما باحتفال مهيب .
في بلّوعة البيت الرئيسية يقدم رؤساء العائلة ذبائحهم
اما الامراء فيقدمونها على مذبح التراب
وهكذا يؤكدون ان الارض اساس كل وجود .
وعندما تقدم القرابين لتراب قرية ما
يشترك جميع سكانها في حفلة التقديم
وعندما تقدم الذبائح للتراب قبل الذهاب الى الصيد
تدب الحركة في جميع سكان الامارة .
ويتبرع المزارعون
عند تقديم ذبيحة الارض
بالبذور التي ستملأ الآنية التي تقدم فيها القرابين
فيبرهنون بهذا عن عرفانهم بالجميل للأصل
اصل كل شيء
ويعودون الى المصدر
مصدر كل ازدهار .

(Li-Ki, Kiaot'ö Cheng, 1).

٩ ـ قرابين الاجداد

جبل الجنوب هذا
كان موضع عناية يو[1]
أستصلحت المرتفعات والاودية
فاصبحت صالحة للزراعة .
انا حفيدكم زرعتها
وحدّدت تخومها
ورويتها
فامتدت الى الجنوب والشرق
قطع الارض التي تبلغ مساحة الواحدة منها حوالى خمسة آلاف متر
مربع .
كانت السماء المرتفعة غائمة
وسقطت جوالح الثلج
ثم تلاها رذاذ المطر
فتشربت الارض الماء
وارتوت
وشبعت
فاخصبت
واعطت غلالي الوفيرة هذه .
على خط مستقيم
ازهر دخني

---

(١) يو Yu : ملك اسطوري اسس سلالة هيا Hia .

سيجني حفيدكم هذا الدخن
ويعصره شراباً روحياً
ويعده طعاماً
يُقدمان لممثليكم وللمدعويين :
حياةً مديدة ومن السنوات آلافاً عشرة[1] .
الاكواخ في وسط الحقول
واليقطين على الاطراف
يُقطّع ويُملّح
واقوم انا بتقديمه لاسلافي العظام .
هل يستطيع حفيدكم ان يعيش حياة مديدة
وان يفوز ببركات السماء .
خمر نقي وثور اصهب : قرباني لاجدادي
بسكين مزودة باجراس صغيرة
اقطع خصلة شعر
وآخذ هذا الدم وذاك الشحم .
هاكم الضحية !
هاكم الذبيحة !
اية رائحة ذكية !
اي عطر !
الذبيحة غاية الكمال

---

(١) سنة تعني موسم حصاد . لقد كانت هذه الامنية « حياة مديدة ومن السنوات آلافاً عشرة » الدعاء المألوف ومنية الخلود والفلاح التي كانت تطلق اثناء الاحتفال بالحصاد . ثم اصبحت بعد ذلك العبارة التي يحيّى بها الامبراطور وحلّت بذلك محل العبارة المألوفة : ليَعش الامبراطور .

والاسلاف اجلاء
سيكافئونني : نعماً عظيمة ،
عشرة آلاف سنة ، وحياة لا تنتهي ! .
(Che King, Sin nan Chan, Couvreur, p. 280).

١٠ ـ مصير الارواح

النفث منتهى كمال الشن[1] ، والبو[2] منتهى كمال الكووي[2] . تصل تعاليم الحكماء الى اوج ذروتها عندما تجمع بين الكووي والشن . كل حي مائت . الاموات يعودون الى الارض : هذا ما ندعوه كووي . الانحلال يصيب اللحم والعظام فتتحول ، في الظل ، الى تراب الحقول ولكن النفث ينطلق نحو الاعالي ويصبح مضيئاً .
(Li-Ki, Tsiyi).

---

(١) الشن Chen : النفس السامية وهي لا تمتاز عن النفث .
(٢) الكووي Kouei : النفس المادية السفلى وهي لا تتميز عن الدم (اسمها بعد الموت) .
(البو) Po : النفس المادية السفلى وهي لا تتميز عن الدم (اسمها اثناء الحياة) .

١١ ـ العائدون[١]

عندما يولد الانسان فان شكله الاول ناشئ عن نفسه المادية الحقيرة (دمه) . ولا تتدخل روح يانغ التي تدعى هووين (النفس السامية) الاّ بعد ولادة النفس المادية الحقيرة . وعندما يستهلك الانسان ، بكميات كبيرة ، جواهر الاشياء فان النفس السامية والنفس الحقيرة تقويان عنده وتحصلان على حيوية خفية تسمح لهما بان تصبحا قوى روحية . وعندما يموت رجل او امرأة من عامة الشعب ميتة عنيفة ، تبقى روحاه السامية والحقيرة قادرتين على الاستيلاء على جسد انسان لاثارة الوساوس . هكذا يجري الامر لا سيما فيما يتعلق بحالة ليانغ سياو (بو ــ ييو) الذي كان حفيد اميرنا القديم مون كونغ . ورغم ان امارة تشنغ ليست غنية بل ، على العكس ، فقيرة ــ كما يقولون ــ ، فقد حصلت عائلة بوييو ، التي استلمت مقاليد الحكم طوال ثلاثة قرون ، على قوت وفير واستطاعت ان تفوز بماهيات كثيرة . ان عائلة بوييو قوية وقد حصلت روحاه على مساندة قوية . ولكن أليس من الطبيعي ، عندما ينتزعه الموت العنيف ، ان يكون قادراً على الرجوع الى الحياة في صورة شيطان ؟

(Tso-tchouan, duc Tchao, 7me année).

(١) هذا المقطع مهم لمعرفة رأي الصينيين في الانفس . فهذه الانفس ليست روحية فقط بل انها تظهر في كثير من الاحيان تحت اشكال ملموسة كاشكال الحيوانات مثلاً . ويرجع الموتى بسهولة ليقتلوا اعداءهم خاصة عندما يموتون باكراً . ولكل فرد ، منذ ولادته ، قسط من الحياة ، ويموت عندما يستنفد قسطه هذا . اما اذا قضى قبل اوانه فان روحيه تحتفظان بقدر من الحيوية يساعدهما على العودة وعلى احداث الاضطرابات بين الاحياء . ولذا يتوجب علينا تهدئة هذه النفوس القلقة بواسطة الذبائح والقرابين .

١٢ ـ الرياضة الروحية التي تسبق تقديم القرابين للاجداد

عندما يدنو موعد تقديم الذبيحة يتطهر الحكيم بالرياضة الروحية . والتطهر معناه التوحيد ، توحيد ما ليس موحداً ، وذلك بغية تمهيد الطريق امام بلوغ حالة التركيز . والحكيم لا يتطهّر الاّ عندما يضطر الى اقامة احتفال كبير والى البرهنة ، بطريقة خاصة ، عن احترامه . كما وانه لا يقيم ، في اكثر الاحيان ، اي حاجز بينه وبين العالم الخارجي ، ولا يقضي على شهواته قضاءً مبرماً ، ولكنه ينعزل ، عندما يتهيأ للتطهّر ، عن مغريات الامور الخارجية ، ويوقف تيار شهواته فلا يعود يستمع الى الموسيقى. نقرأ في المذكرات ما يلي : « الذي يتطهّر يمتنع عن سماع الموسيقى . » وهذا يعني انه لا يسمح لنفسه ان يكون شتيت الذهن فلا يتقبل اية فكرة باطلة ؛ ويسير على هدي القاعدة (التاو Tao) ، ويتجنب كل حركة غير منتظمة تقوم بها الارجل والايدي ، ويتمسك بالشعائر الدينية ويؤديها تأدية كاملة . وهكذا يسعى الحكيم ، وهو يتطهّر ، الى الوصول بفضيلته الى اسمى درجة من الضياء . يتطهّر اولاً ، ولمدة سبعة ايام ، بغية تركيز افكاره ومشاعره ، ولكن تطهره الاول هذا لا يتميّز بالدقة التي يتميّز بها تطهره التالي . ويتصف تطهّره الثاني بطريقة دقيقة تسمح له بحصر افكاره ومشاعره ، وهكذا نجد ان تثبيت الافكار والاحاسيس معناه حصرها ، وعن الحصر يتولد الوحي الكامل ، ولذا نستطيع ، عندما نفوز بالوحي الكامل ، ان نتصل بالقوى المقدسة .

(Li-Ki, Tsit'ong).

١٣ ـ القوانين او التنظيمات الشهرية

في اول شهر من اشهر الربيع يقرّبون القرابين لألوهية الابواب الداخلية فيقدمون ، بادئ ذي بدء ، طحال الضحايا .

رياح الشرق تذيب الجليد ، الحيوانات التي تنام طوال الشتاء تبدأ بالخروج من اوجارها ، الاسماك تصعد حتى تبلغ طبقة الجليد ، كلب الماء يبدأ بتقديم الاسماك كقرابين ، الاوز البري يبدأ بالوصول .

في هذا الشهر يجري تنصيب الربيع . وقبل ذلك بثلاثة ايام يحذّر عالم الفلك الكبير ابن السماء قائلاً : « سيجري تنصيب الربيع في اليوم الفلاني . » وفي الغابة تصل الفضيلة الى ذروة قوتها . عند ذاك يلتزم ابن السماء العفّة . وفي يوم التنصيب يترأس شخصياً موكباً مؤلفاً من ثلاثة دوقة[1] وتسعة وزراء واسياد وقادة كبار يسيرون الى الضاحية الشرقية لملاقاة الربيع . وعند رجوعه يستقر في باحة القصر يوزع المكافآت على الدوقة الثلاثة والوزراء وكبار القادة .

ويختار ابن السماء ، من هذا الشهر ، يوماً ملائماً يرفع فيه الصلوات الى ملك الاعالي كي يرعى موسم الحصاد . وفي يوم ملائم آخر يضع ابن السماء بنفسه مجرفة في عربته ، بين الحوذي والضابط المدرّع ، ثم يتقدم الدوقة الثلاثة والوزراء التسعة والاسياد وكبار القادة ويقوم شخصياً بحراثة حقل المليك السامي فيشق ثلاثة اتلام ويشق الدوقة الثلاثة خمسة اتلام ويشقّ الوزراء والاسياد تسعة .

في هذا الشهر تسقط الانبعاثات من السماء وتتصاعد الانبثاقات من الارض وتنسجم السماء والارض وتأتلفان. وتبرز البراعم على اغصان النبات.

(١) دوقة Ducs لقب الاشراف .

في كل مكان تبدأ الاعمال الزراعية بناءً على اوامر الملك ويعاد النظر في قواعد تقديم الذبائح . وتصدر الاوامر بتقديم القرابين للجبال والغابات ومجاري المياه والبحيرات ، ويمنع تقديم الذبائح الاناث . ويمنع قطع الاشجار ويُحظّر تخريب الاعشاش وقتل دعاميص الحشرات والفراخ الآمنة في احضان امهاتها او تلك التي لم يمض على ولادتها امد ؛ كما يُنبّه الى عدم التعرض للعصافير التي بدأت تطير ، ويُطلب الى المواطنين ان لا يصطادوا الارشاء ولا يستهلكوا البيض . كما يُمنع ، في هذا الشهر ، استخدام السلاح ، ويتعرض ، من يستخدم سلاحه ، لعقاب السماء .

وخلال الشهر الثاني من اشهر الربيع يبدأ المطر بالتساقط . وتبدأ اشجار الخوخ تكتسي بالزهر ، ويغرّد عصفور الصفاري ، ويتحول الباشق الى حمامة برية .

في هذا الشهر تؤوب السنونو ، وفي يوم إيابها يقدمون لاله الزيجات ذبائحاً تشمل ثوراً وكبشاً وخنزيراً ، ويحضر ابن السماء بنفسه هذه التقدمة . اما الملكة فانها تتقدم نساء الصف الثالث التسع وبقية النسوة . ويذبح ابن السماء حملاً يقدمه قرباناً للبرد ويقوم بفتح الثلاجة[1] .

وخلال الشهر الثالث تبدأ اشجار الايليوكوكو تكتسي بالزهر ، ويتحول الخلد الى طائر سمانة ، ويبدأ قوس قزح يظهر ، وتأخذ الاعشاب المائية بالظهور .

تتميّز نشاطات الحياة خلال هذا الشهر بالعنف ، اما حيويات يانغ فتنتشر بقوة . وتبرز البذور المقلوبة على سطح الارض ويكتمل نمو البراعم . على كل حي ان يخرج من سجنه .

(١) كانوا يصرفون البرد بتقديم ذبيحة .

في هذا الشهر تنطلق الملكة ، بعد ان تتطهر وتتقشّف ، ناحية الشرق تقطف اوراق التوت .

وتصدر الاوامر بوجوب تقديم الذبيحة نو No [1] في العاصمة . فيقومون ، عند المداخل التسعة ، بتقسيم الضحايا الى اربعة اقسام ، ويبعدون فضائل الشتاء حتى يكتمل تأثير الربيع .

اما في اول شهر من فصل الخريف فانهم يقومون بتقديم الذبائح لالوهية الابواب الخارجية فيقربون اولاً كبد الضحايا .

تهب ريح باردة ويتساقط الندى الابيض ويصرّ زيز الخريف ويقوم الباشق بتقديم العصافير كقرابين .

خلال هذا الشهر يجري تنصيب الخريف . وقبل ذلك بثلاثة ايام يحذّر الفلكي الكبير ابن السماء قائلاً : « في اليوم الفلاني سيجري تنصيب الخريف ، وستبلغ الفضيلة ذروة قوتها في المعدن . » عند ذاك يلزم ابن السماء الزهد .

وفي يوم تنصيب الخريف يترأس بنفسه موكباً مؤلفاً من ثلاثة دوقة وتسعة وزراء واسياد وقواد كبار وينطلق الجميع الى الضاحية الغربية لملاقاة الخريف . ويقوم ، عند رجوعه ، بمكافأة القواد ورجال الحرب في باحة القصر .

وفي الشهر الثاني من فصل الخريف يقرّب ابن السماء ذبيحة نو كي يساعد على نشر نفث الخريف .

وفي هذا الشهر يتساوى الليل والنهار ، وتتلاشى الصواعق فلا نعود نسمعها ، وتقفل الحيوانات التي تنام طوال فصل الشتاء مداخل

---

(١) لقد كان هدف هذه الوليمة طرد الامراض المعدية .

حجورها ، وتتزايد قوة النشاط الهدّام ، وتتضاءل في كل يوم حيوية اليانع ، وتبدأ المياه بالانقطاع .

وفي الشهر الثالث من فصل الخريف تصدر الاوامر الى الموظفين بوجوب حثّ جميع الناس ، دونما تمييز بين الطبقات ، على جمع المؤن وعلى عدم بعثرة اي شيء ، وعلى الاحتفاظ بما لديهم في المخازن .

وعندما يبدأ الندى الابيض بالتساقط ، خلال هذا الشهر ، تقف جميع الاعمال ويتلقّى القادة الامر التالي : « لم يعد باستطاعة الناس تحمل لفحات البرد القادمة الينا بقوة ووفرة ، فليأوِ الجميع الى منازلهم . »

وفي اول شهر من اشهر الشتاء يتلقّى القادة الامر التالي : « انبثاقات السماء تنطلق نحو الاعالي وانبعاثات الارض تنحدر الى الاسفل . انقطع الاتصال بين السماء والارض . فليتألف الشتاء من سور شامل يمنعنا من الاتصال بالخارج . »

ويقيم الملك في هذا الشهر حفلة تقدم فيها المشروبات بغزارة ...

ويطلب ابن السماء الى الشمس والقمر والنجوم ان تكون مواسم السنة القادمة ناجحة وافرة ، ويقرّب قرابين عدّة لأله الارض المشاع كما يقدم الذبائح ايضاً لابواب المدن والضواحي . ويقدم ذبيحة لا[1] للاجداد والآلهة البيتية الخمسة ويقيم للفلاحين عيداً يريحهم من اتعابهم .

(Li-Ki, Yue-ling).

---

(١) ذبيحة لا La : موعدها في نهاية السنة .

١٤ ـ عيد الحصاد

تشتمل وليمة التشا « Tcha » الكبرى التي يقيمها ابن السماء على ثمانية قرابين . وقد ابتدع هذه الوليمة يي ـ كي . تشا تعني « فَتّش » . تُجمع كل الاشياء في آخر شهر من السنة كي تُقدّم للارواح التي نبحث عنها في كل مكان .

يكرّمون، في وليمة التشا ، الحصّاد الاول[1] بشكل خاص ، ويقدمون الذبائح لمدير الحصاد[2] . كما يقرّبون القرابين للبذور المئة شكرًا لها على المواسم . ويقربون الذبائح ايضاً للفلاحين القدامى وللحدود القائمة بين الحقول وللعصافير وللذوات القوائم الاربع . وهكذا يتجلّى الخير وكمال العدل في اسمى ذروتيهما .

ولم يكن حكماء العصور الخالية يتأخرون في الاعتراف بجميل جميع الكائنات التي قامت باسداء الخدمات ، فكانوا يدعون ارواح القطط لان القطط تقضي على فئران الحقول ، وكانوا يدعون ارواح النمرة لان النمرة تفترس الخنازير البرية . كانوا يدعون هذه الارواح ويقدمون لها القرابين ، كما وانهم كانوا يقومون بتقديم الذبائح لآلهة السدود والاقنية شكرًا لها على الاعمال التي قامت بها .

ويقول الداعي : « لتعد الارض الى مكانها ، ولتنسحب المياه الى مجاريها ، ولتختف حشرات الصيف ، ولترجع الاعشاب الى المستنقعات ! »

---

(١) الحصّاد الاول هو ، على الارجح ، اله الزراعة شن ـ نونغ Chen-Nong .
(٢) مدير الحصاد هو ، على الارجح ، الامير ميلليه .

ويلبس اولئك الذين يقربون الذبائح قلنسوة من الجلد وثياباً بيضاء . يتشحون بالبياض كي يتولوا ، مرة ثانية ، قيادة السنة العجوز الى نهايتها . ويتمنطقون بحزام من القنب ويحملون عصىً من شجر البندق : يلبسون ثياب الحداد على نهاية كل شيء . ثم يعتمرون بعد ذلك قبعات صفراء ويرتدون ثياباً صفراء وذلك كي يقوموا بتقريب ذبائح جديدة ، وغاية هذه الذبائح تأمين الراحة لعمال الحقول . والقبعة الصفراء هي كسوة رأس سكان الجبال وهي مصنوعة من القش .

اما فيما يتعلق بذبائح تشا الثماني ، فانهم يأخذون بعين الاعتبار موارد كل جهة من الجهات الأخرى . فاذا لم تكن مواسم احدى هذه الجهات الاربعة وفيرة فان مناطقها لا تساهم في الذبائح بنفس النسبة التي تساهم فيها مناطق الجهات الاخرى ، وهكذا كانوا يراعون ، بهذه الطريقة ، جانب ثروات الشعب . اما مناطق الجهات التي نجحت فيها المواسم فانها تسهم في تقديم قرابين تشا وذلك كي يشبع الجميع مأكلاً ويرتووا مشرباً . وبعد ان ينتهي الاحتفال بتقديم قرابين تشا ، وتنتهي المواسم ، يخلد الشعب الى الراحة ؛ ولذا نجد ان الحكيم لا يقوم ، بعد عيد تشا ، باي عمل .

(Li-Ki, Kiao t'ö Cheng).

ب - الكونفسيوسية

ولد مؤسسها كونفُسيوس عام ٥٥١ قبل المسيح وتسلم ، وهو ما زال في مقتبل العمر ، منصب وزير العدل في امارة لو فساد القانون في ايامه وازدهر ، غير انه ما عتم ان تخلى عن منصبه الرفيع وانصرف الى التبشير بديانة جديدة تقوم على نظرة اخلاقية اجتماعية ارستقراطية ، وانطلق يجوب البلاد يعلم الناس ان على الرجل الشريف ان يتخطى ذاته كي يحمل الناس على عمل الخير . وكان كونفُسيوس يؤكد انه لم يبتكر شيئاً جديداً بل انه يكتفي بنقل ما يعرفه عن « الحكماء القدامى » .

الفضيلة محور تعاليمه، وهي ، خلافاً لما علمت الهند المتصوفة ، لا تكتسب بالتأمل المنفرد المنعزل بل بالعيش في المجتمع ، والسبيل الى ذلك هو العلاقات التي نقيمها مع اصدقاء خلص نختارهم في ضوء المبادئ السامية ، ومع معلمين اكفاء نصغي الى ارشاداتهم وتوجيهاتهم . بهذه الطريقة ، وبها وحدها . نستطيع بلوغ التاو تو « Tao-tö » اي الفضيلة .

واخلاقية كونفُسيوس الارستقراطية تظهر في الدعوة التي يوجهها الى كل مؤمن كي يعيش وكأنه ملك او امير همه ان يتعهد بنفسه هذه الفضيلة التي تفسر وضعه الممتاز بين بني قومه والتي تدفعه الى ان يطمح الى مثله الاعلى ، الى تحرير نفسه وتنسيق اهوائه ورغباته . اما المعرفة ، المعرفة الكاملة الشاملة ، فلا يمكن ان نبلغها الاّ اذا توصلنا الى الكمال الذي هو هدف كل واحد منا .

اما اجتماعيته فتظهر في تأكيده على ضرورة احترام حقوق الغير وممتلكاته والتقيد بالواجبات الخاصة واستلهام الوضع الاجتماعي الخاص بكل فرد . وقد حدد كونفُسيوس قاعدة هذا الاحترام المتبادل في عبارة ذهبت حكمة : « لا تفعل بالغير ما لا تريد ان يفعله الغير بك » .

كبوذا والمسيح لم يكتب كونفُسيوس اي شيء بل اكتفى بالقاء الخطب التي جمعها اتباعه في كتاب دعي « *Louen yu* » . بيد ان هذا الكتاب لا يبرز فكرة كونفُسيوس بشكل منظم لان ما اضيف على تعاليم المعلم من اولئك الذين تولوا ، بعد موته ، نشر عقيدته ، يكاد يطغي على العقيدة الاصلية .

ومن اشهر احفاد كونفُسيوس تسو — سو « Tseu-sseu » (K'ong Ki) (نهاية القرن الخامس قبل الميلاد) الذي وضع كتاب « البيئة التي لا تتغير » « Tchong-yong » وكتاب « الدراسة الكبرى » « *T'ai-hio* » . وتتضمن هذه الكتب الثلاثة الوارد ذكرها اعلاه ، بالاضافة الى كتاب « اعمال مانسيوس[1] » « *Mong-tseu* » جوهر العقيدة الكونفُسيوسية .

وقد اختيرت النصوص التي نقلت الى العربية من كتاب *La littérature religieuse* الذي نشر باشراف الاستاذين جوزف شين ورينيه كروسيه ، وهي ، من اعمال الاب كوفرور والاساتذة Legge ، و H. Maspero ، و M. Gravet و E. Chavannes ، والاب Weiger .

(١) مانسيوس Mencius ممثل آخر للعقيدة الكونفُسيوسية عاش في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد ، وقضى حياته ، كمعلمه ، يجوب الامارات موزعاً نصائحه وارشاداته .

١ ـ التاو ـ تو[١]

يقول المعلم : « من يعيش منفرداً ليس بفاضل ، الفاضل هو من عاش في وسط جيرانه . »

●

اذا ادركنا في الصباح ماهية التاو استطعنا ان نموت في السماء دونما ندم او حسرة .

●

المثقف الذي يدّعي بانه يصبو الى التاو ويخجل من لباسه وغذائه لا يستحق ان يشاركنا ابحاثنا .

●

الحكيم الذي يعتمد ، في حكمه ، على الفضيلة يشبه نجمة القطب التي تبقى ثابتة في وسط النجوم التي تتحرك حولها .

●

الانسان هو الذي يستطيع ان يزيد من قيمة فضيلته وليست الفضيلة هي التي ترفع من شأنه .

●

ألا تجلب الدراسة التي يرافقها تطبيق مستمر قناعة داخلية ؟ كم من الاصدقاء يقصدونك من بعيد ؟ أوَليس هذا مصدر غبطة ؟ الحكيم هو ذاك الذي يجهله الناس ولا يشعر بأي من متاعب العالم .

●

---

(١) التاو ـ تو ، بنظر كونفُسيوس ، مثل اعلى للكمال قيمته مرتبطة بالجهد الذي نبذله للوصول اليه : فعظمة الانسان اذاً رهن بنفسه وبجهوده لا بمثله الاعلى فقط .

الانسان السامي يتطلب الكثير من نفسه اما العادي فانه يتطلب الكثير من الآخرين .

•

يقول المعلم : « لقد قضيت فيما مضى اياماً كاملة من غير أكل وليالي كاملة لم اذق فيها طعم النوم وذلك بغية الانصراف الى التأمل . ولكن هذا لم يجد نفعاً اذ الافضل ان نتعلم في مدرسة الآخرين » .
(Louen Yu).

•

٢ ـ الدرس الكبير

ينحصر طريق الدرس الكبير في ان تجعل فضيلتك متألقة ساطعة ، وان تجدّد الآخرين وتغيّرهم ، وان لا تقف الاّ عندما تبلغ اقصى الكمال .

لا ندري بما نتشبث الاّ عندما نعرف الحد الذي يجب ان نصبو اليه ، ونقف عنده ؛ ولا نستطيع ان نتمتع براحة البال الاّ عندما نعرف بما نتعلق ؛ ولا نستطيع ان نعيش بسلام الاّ عندما نتمتع براحة البال ؛ ولا نستطيع الانصراف الى التفكير الاّ عندما نعيش في سلام ؛ ولا نستطيع ان نصل الى الفضيلة الاّ عن طريق التفكير .

للكائنات اصل ونهاية وللفاعليات حد وبدء . نقترب من التاو عندما نعرف ان نضع كل شيء في موضعه .

الذين ارادوا ، فيما مضى ، جعل الفضيلة متألقة ساطعة في ممالكهم ، بدأوا بحكم مقاطعتهم حكماً صالحاً . ونظراً لأنهم ارادوا حكم

مقاطعتهم حكماً صالحاً فقد بدأوا بتنظيم عائلاتهم . وباشروا ، عندما ارادوا تنظيم عائلاتهم ، بتثقيف انفسهم . وبدأوا ، عندما رغبوا في تثقيف انفسهم ، بتنظيم قلوبهم ، وباشروا ، عندما ارادوا تنظيم قلوبهم ، بجعل مشاعرهم تتميّز بالاخلاص ، وبدأوا ، عندما ارادوا جعل مشاعرهم تتميز بالاخلاص ، بالوصول بمعرفتهم الى اوج ذروتها ، ودفع المعرفة الى اوج الذروة معناه سبر اغورا الكائنات .

وعندما سبروا اغوار الكائنات بلغت معرفتهم الاوج ، وعندما بلغت معرفتهم الاوج تميّزت احاسيسهم بالاخلاص ، وعندما اصبحت احاسيسهم تتميّز بالاخلاص انتظمت قلوبهم ، وعندما انتظمت قلوبهم اصبحوا مثقفين ، وعندما اصبحوا مثقفين ساد النظام عائلاتهم ، وعندما ساد النظام عائلاتهم سيطر الحكم الصالح على مقاطعاتهم ، وعندما سيطر الحكم الصالح على مقاطعاتهم تمتعت المملكة بالسلام العظيم .

وهكذا على الجميع ان يبادروا الى تثقيف انفسهم ابتداءً من ابن السماء حتى جماهير الشعب ، على حد سواء . وعندما تسود الفوضى القطاعات الاساسية فلا يعقل ان يستتب النظام في المجالات الثانوية . من اهمل امرًا يتوجب عليه الاعتناء به اكثر من غيره لم يعتن اطلاقاً بالامر الذي لا يهمه كثيرًا .

٣ ـ البيئة التي لا تتغير

ان المنصب الذي توليه السماء كل انسان هو طبيعته الخاصة ، فاذا انسجم مع طبيعته فانسجامه هذا هو التاو ، ومبادئ التاو هي

موضوع تعاليم الحكماء . الابتعاد عن التاو ممنوع ولو لبرهة واحدة ، لانه لا يعود تاو ، ولذا نجد ان الانسان السامي حذر حتى في الامور التي لا يبصرها ، ومتيقظ حتى في القضايا التي لا يسمعها ، اذ لا شيء اكثر جلاء من الامور السرية ، ولا شيء اظهر للعيان من الامور الخفية ، ولذا يسهر الانسان السامي على ذاته العميقة بعناية وحرص .

يُقال بان التوازن يبقى سائداً طالما ان الفرح او الغضب او اللذة او التعب لم تظهر بعد ، ويُقال بان الانسجام يبقى سائداً عندما تظهر هذه الاهواء وتبقى محصورة ضمن الحد المعقول . حالة التوازن هي نقطة انطلاق الكون ، وحالة الانسجام هي قانون (تاو) الكون المشترك ، وعندما تصل حالات التوازن والانسجام الى درجة الكمال يفوز كل شيء في السماء وعلى الارض بمكانه ويصل العشرة آلاف كائن الى نموهم الكامل .

٤ ـ من اقوال المعلم

يقول المعلم : « على الانسان ان يقف ، من العالم ، الموقف التالي : لا يصرّ على السعي وراء اي شيء ، ولا يلح في اهمال اي امر . عليه ان يعتمد الوسط قاعدة . »

يدرك الانسان السامي النهج المعتدل في حين ان الانسان العادي لا يدرك سوى الفائدة فقط .

الحكيم يتخذ الاعتدال اساساً يطبّقه وفقاً للشعائر الدينية ويبرزه بتواضع ويسعى باخلاص الى بلوغ درجة الكمال به . الحقيقة ان رجلاً كهذا حكيم .

●

نادرًا ما نصادف ان الرجل الانساني حقاً يتميّز باقوال منمقة ومظهر جذاب .

٥ ـ المعلم والمعرفة

سأل «فان تشيه» المعلم عن المعرفة فأجابه المعلم : « المعرفة هي ان تؤدي واجباتك كمواطن ، وان تحترم ارواح الموتى وتبقى بعيداً عنها . هذا هو الشيء الذي نستطيع ان ندعوه معرفة . » وسأله فان تشيه بعد ذلك عن فضيلة الانسانية فاجابه كونفسيوس : « الرجل الذي مُنح فضيلة الانسان يبدأ في التمرس بالصعاب ولا تحتل الفوائد العرضية عنده الاّ المرتبة الثانية . من تحلّى بهذه الصفات يستحق ان ندعوه انسانياً . »

●

سأل تسو تشانغ مرة كونفسيوس عن الانساني فقال له المعلم : الانساني هو ذاك التي يستطيع ان يتميّز ، اينما وُجد ، بخمس صفات .

ـ ما هي هذه الصفات الخمس ؟

انها احترام الذات ، والمروءة ، والايمان الصالح ، والاجتهاد ، والاحسان . فاحترام الذات يجنبنا السخرية ، وبالمروءة نفوز بمحبة

الجميع ، وبفضل الايمان الصالح نكتسب ثقة الغير ، وبالاحسان نستطيع ان ننال خضوع الآخرين لنا ، اما الاجتهاد فانه يؤمن لنا الدخل .

(Louen Yu).

٦ ـ صلاح الطبيعة البشرية

يقول مانسيوس : « في صدر كل انسان قلب رؤوف بالآخرين . وقد كان للملوك القدامى مثل هذا القلب ، وبالتالي كان حكمهم قائماً على الرحمة . فمن تمتع بقلب شفوق ، ومارس السلطة بعطف ، استطاع ان يسوس المملكة بسهولة فائقة وكأنه يمسك بها في قبضة يده . »

والمثل الذي ساورده يبرهن على ان لكل انسان قلباً شفوقاً : تصوروا جماعة من الناس تبصر فجأة أن هناك ولداً على وشك السقوط في بئر . نجد ان الشعور بالخوف والشفقة يسيطر على الجميع . لا شك في ان سبب هذا الاحساس ليس الامل في الحصول على مكافأة اهل الولد على انقاذه ، او الرغبة في تلقي ثناء المواطنين او الاصدقاء ، او الخوف من السمعة السيئة في حال الاحجام عن انقاذ الولد .

وهكذا نرى اننا نفقد صفة الانسان اذا لم نكن نتمتع بهذا الشعور الغريزي بالشفقة ، ونفقدها ايضاً اذا فقدنا الاحساس بالخجل او الاحساس بمقت الشر . كما واننا نتخلّى عن طبيعة الانسان التي فينا اذا لم نتمتع بشعور يحملنا على التنازل عن حقوقنا للآخرين واذا لم يكن لدينا الادراك الذي يميّز لنا الصحيح من الخطأ .

عاطفة الشفقة هي اساس الاحسان ، والخجل من ارتكاب الشر هو اساس العدل ، ومزية التنازل للآخرين عن حقوقك هي اساس الشعائر الدينية ، وادراك الصحيح والخطأ هو اساس التمييز . لقد زُوّد الانسان بهذه المبادئ الاربعة كما زُوّد باعضائه الاربعة .

(Mencius, II, 1,6).

٧ ـ الحكمة

من اقوال المعلم : « ساعلمك يا يوُو ما هي الحكمة : الحكمة هي ان تدرك انك قُلّم بما تعرف ، وان تدرك بانك تجهل ما خفي عليك ، هذه هي الحكمة الحقيقية . »

(Louen Yu, 2,17).

٨ ـ حِكم

لا تحزن لأن الناس لا يعرفونك ، بل احزن لانك لا تعرفهم .

الدرس من غير تفكير جهد باطل ، والتفكير بدون درس شيء خطر .

عندما تحجم عن الكلام الى انسان يستحق ان يستمع اليك تفقد انساناً ، وعندما تتحدث الى شخص لا يستحق ان يستمع اليك تفقد كلاماً ، الحكيم لا يخسر انساناً ولا كلاماً .

الانسان السامي لا يرفع من قيمة امرئ بسبب ما يقول ، ولا يسفّه قولاً بسبب قائله .

●

الذين لا يتغيّرون مطلقاً ولا يتبدلون هم : كبار الحكماء واواخر المعتوهين .

(Louen Yu).

٩ ـ الارواح

سأل كي لو عن الطريقة المتبعة للاهتمام بالارواح فاجابه المعلم قائلاً : « لم نستطع ، حتى الآن ، الاهتمام بالاحياء فكيف نستطيع الاهتمام بالاموات . »

فقال كي لو : « اسمح لي ان اسألك عن الموت . »

فقال المعلم : « لم نعرف ، حتى الآن ، ماهية الحياة فكيف نعرف ماهية الموت . »

(Louen Yu, 11, II).

●

من اقوال المعلم : « كم هي عظيمة قدرة الفضيلة التي تمارسها الارواح ! فلطالما حدقنا في هذه الارواح ولم نرَ لها اثراً . وكثيراً ما اصخنا السمع اليها فلم نسمعها ولكنها تؤلف الكائنات ولا يمكن ان نهملها ؛ فهي التي تحمل جميع سكان المملكة على التطهّر بواسطة الزهد ، وعلى ارتداء الملابس الفاخرة لتقديم القرابين . انها كثيرة العدد تحيطنا من كل جانب وكانها فوق رؤوسنا وعلى يميننا وشمالنا . كما

اننا نقرأ في « شي كنغ Che King » ما يلي : « ليس باستطاعتنا ان نتنبأ باقتراب الارواح كما وانه ليس بامكاننا ان نسيء معاملتها . »
(Tchong Yong).

١٠ ـ الطقوس الدينية : نظام مفروض على الاهواء

كان يوو ـ تسو بصحبة تسو ـ يوو عندما ابصرا رجلاً ظهرت عليه علامات الالم كما تظهر على الولد الصغير . فقال الاول للثاني : « لا افهم مطلقاً كيف يقفز الانسان فرحاً اثناء فترة الحداد . كنت اتمنى ان تكون هذه العادة قد تلاشت منذ امد بعيد . يبدو على هذا الرجل انه حزين بالفعل فلا حاجة اذاً لهذه المظاهر » .

فاجابه تسو ـ يوو : « هناك طقوس مهمتها السيطرة على المشاعر وهناك طقوس اخرى وظيفتها اظهار هذه المشاعر وتجسيدها . فالذين يتركون لعواطفهم العنان يتصرفون كما يتصرف البرابرة . اما السلوك الذي تفرضه الطقوس فانه يختلف اختلافاً بيّناً . فعندما يشعر الانسان بالكفاية تظهر عليه دلائل الفرح فيدندن ويرقص ويتمايل كما يتمايل الاخرق . ومع ذلك نجد انه قد وقع اثناء رقصه ، فريسة الحزن ، فاصبح حزنه الماً وبدأ يتأوه من ألمه ، يتأوه ويلطم صدره ويثب . والطقوس الدينية تهدف الى وضع حد وقياس لهذه المظاهر العاطفية ، فالميت يبعث الخوف في نفوسنا فنحاول الهرب منه مع انه عاجز عن القيام بأي شيء ، ولذا تفرض علينا الطقوس ان نلفّه بكفن واغطية وان نقيم الزينات الجنائزية وذلك حتى يتلاشى شعورنا بالخوف .

يضعون بجانب الميت لحماً مجففاً ولحماً محفوظاً بالخل وترافقه هذه القرابين الى القبر . وبعد ان يوارى الثرى يستمر تقديم الغذاء له (على شكل قرابين) . لم يرَ احد منا الميت يتناول هذه القرابين ومع ذلك لم يهمل احد تقديمها منذ امد بعيد جداً وهذا يعني ان على الاحياء ان لا يهملوا امواتهم . وهكذا نرى ان الناحية التي تنتقدها في الطقوس ليست خطأ .

(Li-Ki, T'ang Kong, 2).

١١ ـ طقوس الحداد علم لمعالجة الامراض

جرت العادة على ان يخلع الابن ، عند موت ابيه او امه ، قلنسوته ، ويكتفي بدبوس عظم او عاج وبقلنسوة الحرير التي كانت تغطي شعره ، ويسير حافي القدمين يشكي وينوح رافعاً طرف ثوبه الداخلي ، مثبتاً اياه عند حزامه ، وشابكاً يديه على صدره . وكانت الكآبة العميقة التي اعتصرت قلبه ، والاضطراب المرهق الذي سيطر على فكره ، يسببان له الماً في الكلي وجفافاً في الكبد وحرقة في الرئتين . وكان يمتنع عن شرب الماء او الحساء ، وعن اشعال النار طيلة ثلاثة ايام . وكان الجيران يعدّون له حساء الارز او الدخن غذاءً وماء الارز او الدخن شراباً . وكان مظهره الخارجي يتغيّر بسبب الحزن الذي كان يمزّق اعماقه . ولا يعود يستحسن اي مذاق ، وذلك بسبب الالم الذي يعذب قلبه ، كما وان افضل الاشياء لم تكن لتجلب له المسرّة .

وبعد الوفاة بثلاثة ايام يُلبس الميت ثيابه . وطالما ان الجثة ممدّدة في السرير فانها تُدعى شي ولكنها تسمى كيوو عندما توضع في النعش . وعند رفع الجثة (لالباسها الثياب او وضعها في النعش) او حمل النعش (لاعداد الدفن) كان الابن ينوح ويقفز قفزات لا عدّ لها . وكان ، تحت وطأة الألم والحزن الذين يفعمان قلبه ، وتحت تأثير الاضطراب المرهق الذي حل بفكره وشدائد الحزن والغم التي سيطرت عليه ، كان يكشف عن ذراعه الايمن ويثب كي يعيد الهدوء الى قلبه ، ويقوم بتحريك اعضائه كي يحمل ثورة الحزن على مغادرة فؤاده . اما النساء فقد كانت الحشمة تمنعهن من الكشف عن الذراع لكنهن كن ينحنين الى الامام ويلطمن صدورهن ويقفزن على طريقة عصافير الدوري (ولكن دون ان يرتفع طرف القدم عن الارض) ويضربن ضربات تترك اصداء عميقة كصوت الجدار المتهدم. وكان الحزن يبلغ اوج ذروته وكذلك الغم والألم . ويقال بان « الدليل على حزن مرافقي الميت الى القبر قائم في لطم الصدور والقفز والنواح والبكاء . وعندما يذهبون الى المقبرة يرافقون جثته وعندما يؤوبون يعودون بروحه . »

اما الذين يمشون في الجنازة فانهم يبدون ، وهم ذاهبون الى المقبرة، وكأنهم ينظرون امامهم بأمل ويسرعون وكأنهم يركضون في اثر رجل لا يشق له غبار . اما عند رجوعهم فانهم يبكون وينوحون وتظهر عليهم علامات الحيرة وكانهم يفتشون عن رجل لا يستطيعون العثور عليه .

عندما يرافقون النعش الى الرمس يبدو عليهم انهم يشعرون باسى عميق . ولكنهم يظهرون ، عند عودتهم ، وكانهم تاهوا عن اتجاههم. فقد بحثوا عنه في كل مكان ولم يجدوه . اجتازوا البوابة الكبيرة فلم

يبصروه ، وصعدوا الى الغرفة فلم يروه، ودخلوا الى الغرفة الداخلية فلم يقفوا له على اثر ، لقد اختفى ولم يعد موجوداً . لن يروه بعد الآن . ولذا ينوحون ويبكون ويلطمون صدورهم ويقفرون ؛ ويستمرون على هذه الحال حتى يشفوا غليل ألمهم . انهم حيارى . مفجوعون ، مضطربون ، شديدو الحزن ، لقد فقدوا كل امل ولم يبق لهم سوى ألمهم .

(Li-Ki, Wen Sang).

١٢ ـ ما هو اصل الطقوس ؟

يولد الناس مزودين برغبات لا يستطيعون تحقيقها . والقعود عن تحقيق هذه الرغبات مستحيل . فاذا سعى الناس الى تحقيق رغباتهم هذه دون ان تكون هناك قواعد ومقاييس للتوزيع والقسمة فقد تنشب الخلافات بينهم ، والفوضى تنشأ عن الخلافات ، واستنزاف الاموال ناجم عن الفوضى . ولذا كان الملوك القدامى يكرهون الفوضى فوضعوا الطقوس ومبدأ الانصاف كي يقوموا بتوزيع المُشتهى بطريقة تؤمن تحقيق رغبات الناس واعطاء كل واحد منهم ما ينشد . وتصرفوا بطريقة لم تعد فيها الاشياء تحد الرغبات ولا الرغبات تحد الاشياء المستنزفة او المستهلكة . وهكذا اصبح النمو متكافئاً من الناحيتين .

(Granet, *Pensée Chinoise*, p. 556).

١٣ ـ الموسيقى والطقوس

الموسيقى توحّد والطقوس تفرّق .
عن التوحيد تنشأ الصداقة المتبادلة وعن التفرّق ينشأ الاحترام المتبادل.
ولكن عندما تهيمن الموسيقى فانها تولّد الخمول .
وعندما تهيمن الطقوس فانها تولد الانشقاق .
ووظيفة الطقوس والموسيقى توحيد المشاعر وتزيين المظهر الخارجي.
(Li-Ki, Yo-Ki).

١٤ ـ الموسيقى (١)

الموسيقى هي السماء والارض منسجمتان ، والطقوس هي السماء والارض متسلسلتان متدرجتان .

الكائنات المئة تتغيّر بواسطة الانسجام ، والكائنات العديدة تتميّز بواسطة التسلسل .

الموسيقى تستوحي من السماء مبدأ عملها ، اما الطقوس فانها تأخذ مبدأ تنظيمها من الارض .

سوء استخدام التنظيم يقود الى الفوضى ، والعنف ينشأ عن سوء استعمال العمل .

عليك ، قبل ان تتمكن من الانصراف كلياً الى الطقوس والموسيقى ، ان يكون لديك عن امور السماء والارض نظرة واضحة .
(Li-Ki, Yo-Ki).

١٥ ـ الموسيقى (٢)

قال احد الحكماء : « علينا ان لا نتخلّى عن روح الطقوس والموسيقى برهة واحدة . »

فالانسان الذي يمارس الموسيقى ممارسة صحيحة متوخياً، من وراء ذلك ، تنظيم قلبه ، يتفجّر فيه فيضٌ غزير من الهدوء والاستقامة والبنوّة والاخلاص . وعندما يتمتع الانسان بالهدوء والاستقامة والبنوّة والاخلاص تغزو الغبطة قلبه . والغبطة تولد السعادة والسعادة تولد الاستقرار والاستقرار يجعله شبيهاً بالسماء . وعندما يصبح شبيهاً بالسماء فانه يضحى شبيهاً بأحد الآلهة ، ويصبح كالسماء يوحي بالثقة من غير حاجة الى كلام ، وكالآلهة يوحي بالخوف من غير حاجة الى اظهار غضبه . هذا هو الانسان الذي يمارس الموسيقى ممارسة صحيحة متوخياً بذلك تنظيم قلبه . اما الذي يمارس الطقوس ممارسة صحيحة متوخياً بذلك تنظيم مظهره الخارجي فانه يتمتع بشخصية وقورة ومحترمة في آن واحد . واذا اجتمع الوقار والاحترام فانهما يوحيان الاحساس بالرهبة والاجلال .

(Li-Ki, Yo-Ki).

وهكذا نجد ان الموسيقى تؤثر على وضع الانسان الداخلي بينما تؤثر الطقوس على مظهره الخارجي ، الموسيقى تقوده الى الانسجام التام بينما تقوده الطقوس الى التوافق توافقاً كاملاً مع الطبيعة . وعندما يكون وضع الامير الداخلي متناسقاً ، ومظهره الخارجي متوافقاً (مع النظام الطبيعي) فان على الشعب عندئذ ان لا يقتدي بغير نهجه كي لا يقاومه ، وعليه ان لا يتأثر بغير هندامه وذلك كي لا يشعر باي اهمال او كسل . كذلك فان جميع افراد الشعب يخضعون للفضيلة اذا ما فعلت فعلها في اعماق الانسان وتألقت في دخيلته ، ويتقيدون جميعهم بمبادئ النظام الطبيعي عندما يظهر العقل الى الخارج .

(Li-Ki, Yo-Ki).

ج - التاويّة

التاوية مزيج غريب من عناصر متنوعة متناقضة اهمها : عادة تقديس ارواح الطبيعة والموتى ، وعبادة النار والشمس والشياطين ، والايمان بالتعاويذ ، ومجموعة من الخرافات الفظة والسحر والشعوذة ، اضف الى ذلك عقائد « لاوتسو » الفلسفية المحرّفة .

عرفت بهذا الاسم نسبة الى التاو وهو ، بنظرها ، المبدأ الاول للكون ، وجوهر النظام الكوني ، وقيمة العالم الكبرى ، والقوة السامية والفضيلة الاساسية التي نصل ، اذا ما اتحدنا بها بطريقة صوفية ، الى الخلود . وهذا التاو ليس إلهاً ، انه مبدأ لاذاتي داخلي سابق لكل وجود فردي ، يعمل من الداخل لا من الخارج وباستطاعته ، دون ان يبذل اي جهد ، ان يحيي الكائنات وان يقضي عليها وان يحولها الى كائنات اخرى دون ان ينحاز لاي واحد منها لأن طبيعته المحايدة لا تميز بين كائن وآخر .

كانت التاوية ، بادئ ذي بدء ، فلسفية ثم اصبحت ، بعد ان تأثرت بالبوذية ، ذات طابع اخلاقي ، فانصرفت الى الذات الفردية والتصوف وابتعدت عن المظاهر والضوضاء وارتمت في احضان الوحدة والعزلة . وقد كان ، من نتائج هذا الانطواء على الذات ، وهذه النزعة الصوفية التي امتازت باهتمامها بالقضايا التقنية كالسحر والطب والكيمياء ، ان التاوي اصبح يدعو الى الابتعاد عن كل هوى ، والى الامتناع عن الادلاء باي رأي خاص ، والى رفض التدخل ، باي شكل من الاشكال ، في مجرى الامور ، والى اهمال الواجبات الاجتماعية : انها سلبية مطلقة تناقض تماماً تعاليم كونفُسيوس الداعية الى الاشتراك في الحياة الاجتماعية .

كذلك تعلم التاوية ان اتباع تعاليمها وطقوسها يؤدي الى زيادة طاقة الفرد وقدرته السحرية زيادة دائمة لا وقتية ، وان الاتحاد بالتاو ، هذا المبدأ العميق الكامن في ذاتنا وفي جميع الاشياء ، لا يعني اطلاقاً ادراك ماهية التاو : كل ما نستطيع بلوغه هو الانخطاف ومشاركة «الكل الاكبر» ، اما تحديده فامر خارج عن طاقتنا . وعندما نتحد بهذا « الكل الاكبر » ينتفي بنظرنا الخطأ والحقيقة — — اذ لا خطأ ولا حقيقة في التاو — لأن المتناقضات تتشابه فيه وتتماثل .

وتؤمن التاوية بان طبيعة الحياة والموت انتقالية ونسبية ، وبان الامجاد الدنيوية زائلة وباطلة ، وبان المحافظة على النشاط والحيوية ، والاحجام عن القيام باي عمل ، والامتناع عن التدخل ، وتجنب الاتصال بالآخرين ، والابتعاد عن كل دنس ، والتكيف مع كل شيء كالماء ، والوصول الى اللاحركة من شأنها ان تزيد من قوة المرء وقدرته على العيش وان تمنحه سلطة لا حد لها على الطبيعة . ولذا تدعو التاوية الى الاعراض عن العلم ، فمعرفة التفاصيل باطلة بنظرها ، اما معرفة « الكل » فهي وحدها التي تساعد على تركيز الطاقة الروحية ، وقد كان من نتائج ذلك ، على الصعيد الاجتماعي ، ان التاوية كانت تؤمن بان الشعب الذي يصعب حكمه هو ذاك الذي اطلع على كثير من العلوم .

اما مثل التاوية الاعلى فهو القضاء على نظام الحاكم والمحكوم ، وبتعبير آخر الوصول الى مرحلة لا نحتاج فيها الى رؤساء وقادة .

المصادر التاوية

جمعت الكتب التاوية الدينية في مجموعة اطلق عليها اسم *Tao-tsang* .

اما المؤلفات التاوية الفلسفية (والتاوية الفلسفية لا تختلف كثيراً عن التاوية الدينية) فاهمها :

١ — **كتاب التاو — تو** *Tao-tö-king* او *Lao-tseu* وهو كتاب صغير يعتقد ان مؤلفه لاوو تان « LAO TAN » عاصر كونفُسيوس .

٢ — **كتاب** *Tchouang-tseu* لمؤلفه Tchouang Tcheou الذي يعتبر افضل كاتب عرفته الصين القديمة .

٣ — **كتاب** *Lie-tseu* الذي يعتقد ان واضعيه كانوا من اتباع تشو وانغ تشوو .

يضاف الى ذلك كتاب « المذكرات التاريخية » *Che ki* » لمؤلفه Sseu-Ma Ts'ien الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد . وهذا الكتاب يتناول تاريخ الصين منذ البدء حتى القرن الاول قبل الميلاد ، وقد قام شافان بترجمة قسم منه .

اما الترجمات الاخرى فقد كانت من عمل الاب كوفرور والاستاذ كرانيه والاب بيجر والاستاذ ماسبيرو والاستاذ كروسيه وقد وردت كلها في كتاب *La littérature religieuse* الذي نشر باشراف الاستاذين جوزف شين ورينيه كروسيه .

١ ـ التاو[1]

كثيراً ما اردتَ ان تعبّر عن التاو ، ولكن ما عبرت عنه لم يكن التاو الازلي ، وكثيراً ما اردتَ ان تطلق عليه اسماً ولكن الاسم لم يكن اسمه الأزلي . اذا بقي بدون اسم فهو اصل السماء والارض (الكون) ، واذا اعطي اسماً فهو أم العشرة آلاف كائن .

جوهره الغامض موضوع تأمل من يتحرر ، بشكل دائم ، من الشهوات . اما الذي يقع باستمرار فريسة الاهواء فلا يتأمل سوى نتائجه . وراء شكلي التاو هذين تكمن حقيقة واحدة : لندعوهـا الغامض . اكثر ما في هذا الغموض غموضاً هو المنفذ الى جميع الجواهر الغامضة .

(Tao-tö King, I, I).

---

(١) التاو هو ، قبل كل شيء ، كائن غير محسوس لا تنطبق عليه التعابير والألفاظ الانسانية . لقد مر زمن لم يوجد خلاله ، خارج جوهر هذا التاو ، اي شيء . وكان لهذا الجوهر شكلان او صفتان منبثقتان من داخله : الين اي السلبية واليانغ اي الايجابية . وقد ألفت هاتان الكيفيتان الكون : اليانغ كون السماء والين كوّن الارض . وانبثقت من السماء والارض جميع الكائنات الخاصة التي هي نتيجة نشاط المبدأ الاساسي (اي التاو) . وتقابل حالتي الراحة والنشاط اللتين يمر بهما التاو حالتان يمر بهما الانسان في معرفته : فعندما يمتلئ عقل الانسان بالشهوات وبالافكار الخاصة فان معرفته تنحصر في نتائج التاو وفي الكائنات المحسوسة المميزة . وعندما يتحرر العقل من الشهوات والافكار المميزة فانه يصبح كمرآة صافية او كمياه ساكنة راكدة تستطيع ان تعكس الجوهر العميق للتاو نفسه .

٢ ـ ميزة التاو انه لا محدود وينبثق من الداخل[1]

سأل تونغ – كوو وتسو ، مرة ، تشو وانغ – تسو : « اين يوجد هذا الشيء الذي تسميه التاو ؟ » فاجابه تشو وانغ – تسو : « انه موجود في كل شيء » .

– « اعطني ، على كل حال ، مثالاً على ذلك »

– « التاو موجود في هذه النملة . »

– « هل يمكن ان يوجد في كائن احقر من النملة ؟ »

– « انه موجود في هذا العشب . »

– « وهل يمكن ان يكون في ما هو احقر من العشب ؟ »

– « انه في هذه الكسرة . »

– « وهل يمكن ان يكون في ما هو احقر من ذلك ؟ »

– « انه في هذا الدمال . »

لم يتفوّه تونغ – كوو وتسو بجواب . اما تشو وانغ – تسو فاستطرد قائلاً : « ولكن طرح الاسئلة ، بالطريقة التي تتبعها ، لا يوصلك الى شيء . فباستطاعة الخولي ومفتش السوق ان يستعملا نفس الطريقة عندما يتجادلان حول ثمن الخنازير ، فيقوم احدهما بغرز رجله في شحم الخنزير ويتحدّد ثمن الخنزير بنسبة غرز الرجل في شحمه . لا تطلب الدقة في تحديد التاو ولا تنشده خارج الكائنات . واذا كان

(١) يعبّر هذا المقطع عن انه يستحيل علينا ، حتى بواسطة التأمل الذي ينقلنا الى مجالات العدم (اي الى حالة العالم الاولى عندما لم يكن هناك شيء سوى المبدأ) او الى دائرة اللاحركة (في الطمأنينة المطلقة) ، ان نجد حدود التاو الذي هو لا نهائي منبثق من داخل جميع الاشياء حتى اكثرها حقارة .

الامر على هذا الشكل بالنسبة للتاو فانه نفس الشيء فيما يختص بالكلمات التي تعبّر عن اتساعه اللامحدود. لنسمّيه السامي، الكلي، الكامل، وهذه الصفات الثلاث تعبّر عن حقيقة واحدة وتهدف الى التعبير عن الواحد.

لنحاول ان ننتقل بالفكر الى ميدان العدم: إن باستطاعتنا، في هذا المجال، ان نتناقش حول التاو المنضوي على ذاته دون ان نجد له نهاية او حدّاً. او لنحاول ان نبقى داخل نطاق اللاعمل (الجمود) فالبساطة والهدوء واللامبالاة والطهر والانسجام والفراغ هي صفاته، والرغبة في الوصول اليه ليست سوى رغبة باطلة، لان التاو غير موجود في هذه النواحي، ولست ادري اين يوجد واين يتوقف في ذهابه وايابه. لقد انطلق الى نواحي العدم واللاعمل ولست ادري اين سينتهي به المطاف. فلننله بحرية في هذا الرحب الذي لا نهاية له. لقد قام العباقرة الكبار بسبر اغواره العميقة ولكنهم لم يصلوا الى اقاصيه اذ ان الحدود التي تحدّ الكائنات ليست ذاتها التي تحد ذاك الذي كان السبب في كون الكائنات على ما هي عليه. فللكائنات حدود خاصة بها اما حدود اللامحدود فهي عدم وجود حدود للكائنات المحدودة...
(Tchouang-tseu, 22).

٣ ـ الموسيقى والصوفي[١]

عندما كانت انامل باويا تداعب اوتار قيثارته كانت الاطيار

(١) يعبّر هذا المقطع عن قدرة الموسيقى على توليد اصداء وائتلافات في الطبيعة.

ترقص والاسماك تتواثب . وحين سمع المعلم وين ، من مدينة تشنغ ، بشهرة باوبا ، ترك عائلته كي يتلقن الموسيقى في مدرسة المعلم سيانغ . ولكنه لم يعزف ، طوال ثلاث سنوات ، اي لحن ، بل اكتفى بتمرين اصابعه وببّض اوتار آلته الموسيقية ؛ عندها قال له المعلم سيانغ : « الافضل ان ترجع الى بيتك . » فاجابه المعلم وين ، وهو يضع قيثارته ويتأوه : « ان سبب تمنعي ، حتى الآن ، عن عزف اي لحن موسيقى ليس عدم قدرتي على بضّ اوتار قيثارتي او على عزف لحن موسيقى ، فمثلي الأعلى لا يتجسّد في الاوتار او الاصوات . السبب هو انني لم استطع ، حتى الآن ، ان احقق ، في اعماقي ، ما كنت انشده بقلبي ، ولذا لم اتمكّن من ان اعبّر بواسطة العزف عن دخيلتي ، وهكذا لم تجرؤ يداي بعد على التلاعب بالاوتار . ولكن امهلني بعد قليلاً وسترى النتيجة . » وبعد ذلك بوقت وجيز رجع المعلم وين لمقابلة المعلم سيانغ فسأله هذا قائلاً : « اين وصلت في عزفك ؟ » فاجابه المعلم وين : « لقد وجدت ضالتي ، ارجو ان تسمح لي بان اعزف في حضرتك . »

وكان الوقت آنذاك ربيعاً فعزف المعلم وين لحن شانغ الذي يناسب مزمار نان — لو (اي الخريف) فهب للحال نسيم منعش ونضجت الثمار على الاشجار . وعندما حل الخريف عزف المعلم وين لحن كيو الذي يناسب مزمار كيا — تشونغ (اي الربيع) فهب نسيم لطيف وازهرت الاشجار . وكان اذا حلّ الصيف ولمس وتريو الذي يناسب مزمار هو وانغ — تشونغ (اي الشتاء) بدأ الثلج والندى الابيض بالتساقط وتجمّدت الانهر والبحيرات . وكان اذا ما حل الشتاء وعزف لحن تشنغ الذي يناسب مزمار جووي — بين ارتفعت في الحال درجة الحرارة والنور وذاب الجليد . وعندما كان يداعب ، في النهاية ،

الاوتار الاربعة على التوالي كان النسيم اللطيف يهب والغيوم الخيّرة تظهر والندى السكّري يتساقط من السماء والينابيع المدهشة تتفجّر من الارض .

(Lie-tseu, 5).

٤ ـ الاتحاد مع التاو[١]

قال ين ـ هووي لكونفُسيوس : « اني اتقدم ! » فقال له كونفُسيوس . « ماذا تعني بذلك ؟ »

ـ اقصد بذلك اني فقدت مفاهيم الصلاح والعدالة .

ـ ما وصلت اليه حسن ولكن ليس هذا كل شيء .

وقابل ين ـ هووي كونفُسيوس مرة ثانية فقال له : « اني اتقدم ! »

ـ ماذا تعني بذلك ؟

ـ اعني بذلك اني فقدت مفهوم الطقوس والموسيقى

ـ ما توصلت اليه جيد ولكن ليس هذا كل شيء .

ومرة ثالثة قابل ين هووي كونفُسيوس وقال له : « اني اتقدم ! »

ـ ماذا تعني بقولك هذا ؟

ـ اعني بذلك انني انسى في الجمود[٢] .

فدهش كونفُسيوس جداً وسأله :

ماذا تعني بقولك : انسى في الجمود ؟

---

(١) انه احد النصوص الكثيرة التي يبرز فيهـا تشو وانغ تسو المعلم كونفُسيوس او احد اتباعه ليسخر منهما او ليجعل منهما تاويين .

(٢) نسي في الجمود : اي بلغ مرحلة الانخطاف فنسي نفسه وهو جالس .

ـ اقصد بقولي هذا تعرية الجسم والتخلّي عن الذكاء وعن كل شكل ، وطرد كل علم والاتحاد بهذا الشيء الذي يتغلغل في كل شيء. هذا ما اسميه ، نسي في الجمود .

فقال كونفُسيوس عندئذ : « هذا هو الاتحاد الذي لا مكان فيه للحب الفردي الخاص وهذا هو التحوّل الذي تضيع فيه الفردية . لقد وصلتَ يا ين ـ هووي الى الحكمة الحقيقية ، فاعتبرني كاحد تلامذتك ! »

(Tchouang-tseu, 6)·

٥ ـ الطريقة العامة لاظهار الاشباح

كان لاو ـ تشنغ تسو قد التحق بمدرسة المعلم ين وين ، متوخياً من وراء ذلك ، اقتباس العلم السحري الذي يسمح ، لمن اطلع على اسراره ، ان يوئثر على الأشياء وهو بعيد عنها فيغيّر مظهرها الخارجي.

ولكن المعلم لم يلقنه ، طوال ثلاث سنوات ، شيئاً . عند ذاك اعتذر لاو ـ تشنغ تسو عن اخطائه العرضية وعرض على المعلم ان يسمح له بالانصراف . عندها حياه المعلم ين وين وقاده الى غرفة منفردة بمعزل عن كل شاهد وقال له : « عندما رحل لاو تان ، في الماضي ، نحو الغرب علّمني ، قبل ذهابه، « ان نسمة الحياة ومظاهر الاجساد ليست سوى وهم وان ما نسميه : الحياة والموت هو ذاك الذي يعود اصله الى المحوّل الكبير (التاو) ، وهو الدورات المتعاقبة التي تنشأ عن الين واليانغ . اما الدورات المتعاقبة التي تنشأ عن استهلاك الاعداد[1] ، واما التقلبات التي تطرأ على الاشكال ، فاننا

(١) اي الاعداد التي تشير الى سني حياة كل كائن .

نسمّيها تغيّرات ونسمّيها ايضاً الاساليب التي تُظهر الاشباح وتغيّر ، عن بعد ، مظاهر الاشياء . فن مبدأ الكائنات الاول غامض جداً اما انجازاته فعميقة جداً ولذا لا نستطيع الالمام بجميع اسراره . ولكننا اذا اقتصرنا على الاجسام المادية فقط فاننا نجد ان فنه ظاهر وان انجازاته اقل عمقاً ، ولذا يبدو ان الاجساد خاضعة لمراحل متعاقبة من التقدم الذي يبلغ الذروة . ومن الانحطاط الذي يصل الى درجة الانقراض . وعندما ندرك ان جميع التغيّرات التي تطرأ على الطريقة العامة لاظهار الاشباح لا تختلف عن الحياة والموت ، عند ذاك ، وعند ذاك فقط ، نستطيع ان نأمل تعلّم طريقة تغيير مظهر الاشياء عن بُعد . انا وانت اوهام فما هو الامر الذي نحتاج الى اقتباسه ، بعد هذا ، في هذا المجال ؟

(Lie-tseu, 3).

٦ ـ الجمجمة

كان تشو وانغ متوجهاً الى مملكة تشو فابصر جمجمة فارغة سليمة غير مصابة باي كسر ولكنها عارية لا لحم عليها . فاقترب منها وحرّكها بقضيبه وسألها :

« هل وصلت الى الحالة التي انت فيها لان التعطش الى الحياة افقدك الصواب ؟ ام لانك كنت السبب في ضياع بلادك فحُكم عليك بالموت تحت المقصلة ؟ ام لأنك اسأت التصرف فتركت اهلك وزوجك واولادك فريسة الخجل بسبب سلوكك السيئ ؟ ام لانك كنت ضحية الفقر والبرد والجوع ؟ ام ان الشيخوخة هي التي اوصلتك الى هذه الحالة ؟ »

ثم لم يلبث تشو وانغ ، بعد ان انتهى من كلامه ، ان التقط الجمجمة واستخدمها كوسادة للنوم . وعند منتصف الليل ظهرت له الجمجمة في الحلم وخاطبته قائلة : «لقد خاطبتني على طريقة السوفسطائيين ، وكل ما قلته لي يتعلق بالمصاعب التي يصادفها الاحياء . في حين ان هذه الامور لا وجود لها بالنسبة للاموات . فهل تودّ ان احدثك عن الاموات ؟ »

فاجابها تشو وانغ : « بكل سرور» فقالت الجمجمة : « لا اسياد في مملكة الاموات ولا اقطاعيين ، لا فصول ولا عمل . ودعاء نحن ، عمرنا عمر السماء والارض . السعادة التي نتمتع بها اعظم من سعادة الملك الجالس على عرشه » . فقال لها تشو وانغ – تسو وهو غير مصدّق اقوالها : «اذا طلبت الى حاكم القدر ان يعيد الحياة الى جسمك وعظامك ولحمك وجلدك ، وان يعيد اليك اباك وامك وزوجك واولادك وجميع اصدقائك القرويين فهل توافقين على ذلك ؟ » فحدّقت به الجمجمة بمحجريها الاجوفين ثم اشاحت بوجهها عنه وقالت : « هل اتخلّى عن سعادتي الملكية لاعود الى شقاء البشر . »

(Tchouang-tseu, 18).

٧ _ تصرف تشو وانغ _ تسو عند موت زوجته[١]

عندما ماتت زوجة تشو وانغ تسو ذهب هووي – تسو اليه كي يقدم له تعازيه فوجده جالساً القرفصاء يغني ويقرع على جرة امامه

(١) يحتقر التاويون مراسم تشييع الموتى لان الموت ، كالحياة ، ليس سوى مرحلة انتقالية ، انه راحة نسبية .

موقعاً احد الالحان . فقال له هووي ـ تسو : « ان لا تبكي تلك التي عاشت الى جانبك وانجبت لك اولاداً وشاخت واياك ،امر معقول ، ولكن ان تغني وتقرع الجرة موقعاً عليها الحانك فهذا امر يفوق كل تصور » .

فاجابه تشو وانغ ـ تسو : « لا ابداً . ألا تعتقد أني حزنت، بادئ ذي بدء ، عندما ماتت ؟ ولكني عدت ففكرت في اصل كل وجود فرأيت انها لم تكن ، في وقت من الاوقات ، قد وُلدت بعد ، ولم تكن حتى قد اصبحت كائناً مادياً بعد . رأيت أكثر من ذلك ، رأيت انها لم تكن ، في وقت من الاوقات ، حتى ولا نفث : كانت غارقة في غموض الخواء . ومن هذا الغموض ظهر ، في مرحلة التحوّل الاولى ، النفث ، وحصل الجسم بعد ذلك ، في مرحلة تحول جديدة ، على الحياة . ونحن الآن تجاه مرحلة جديدة من التحول هي الموت . وهذه المراحل شبيهة بانتقال الفصول الاربعة من الربيع الى الخريف ومن الصيف الى الشتاء . وزوجتي تنام الآن ممدّدة في المراح الكبير (الكون) واذا بدأت أشهق وأبكي فان شهيقي و بكائي سيكونان الدليل على انني غير قادر على سبر غور القدر . ولذا تجد اني اعرضت عن البكاء » .

(Tchouang-tseu, 18).

٨ ـ احتقار الامجاد

كان تشو وانغ ـ تسو جالساً عند ضفة نهر بو يصطاد السمك بالصنارة ، فاقترب منه ضابطان ارسلهما اليه الملك تشو واخبراه بان

الملك يريد ان يسند اليه امر ادارة املاكه . فقال لهما تشو وانغ — تسو وهو ما زال ممسكاً بالصنارة ومديراً ظهره : « سمعت ان في بلاد تشو قوقعة سلحفاة ماتت منذ ثلاثة آلاف سنة وان الملك تشو يحتفظ بها على اعتبار انها شيء ثمين وقد وضعها في سلة مغطاة بقطعة قماش واودع السلة هيكل الأباء والاجداد . اتعتقدون ان هذه السلحفاة كانت تفضل ان تموت ويحفظ بيتها ويكرّم او ان تعيش وتجر ذيلها في وحول المستنقعات ؟ » فاجابه الضابطان الكبيران : « لو ترك لها الخيار لكانت فضلت العيش وجر ذيلها في وحول المستنقعات . » فقال تشو وانغ — تسو : « امضيا في سبيلكما اذاً فانا ايضاً افضل ان اجر ذيلي في اوحال المستنقعات . »

(Tchouang-tscu, 17).

٩ ـ مراحل الانخطاف[١]

سأل نان — بوتسو — كووي مرة نيو يو قال : « كيف تحتفظ بهذه البشرة الناعمة كاهاب الطفل رغم انك بلغت من العمر عتياً ؟ » فقال نيويو : « لقد تعلمت ما هو التاو . »

— « هل نستطيع اذاً ان ندرس التاو ؟ »

---

(١) يصل المرء الى حالة الانخطاف بعد ترويض نفسه ترويضاً يحرر الكائن من كل مفهوم مصطنع . وغاية الترويض هي تحرير الكائن حتى من فكرة الوجود . وعندما نتحرر من فكرة الوجود نصل ، وسط هالة من النور كانها الفجر ، الى رؤيا استقلالنا المنعزل . وعندها يضمحل مفهوم الزمن ويتحقق الانخطاف ، هذا الاتحاد الصوفي .

— « لن تستطيع ذلك لأنك لست بالرجل الكفوء . لقد كان بو ـ لنغ ي ميالاً للقداسة ولكن لم يكن يمتلك مبدأ القداسة . اما انا فقد كنت امتلك مبدأ القداسة ولكني كنت مفتقراً للقابلية . واردت ان اعلّمه وانا آمل انه لم يكن ، في الحقيقة ، بعيداً عن القداسة . وكنت احسب ان من السهل ، على كل حال ، أن نزوّد من كانت لديه الميول ، بمبدأ القداسة . فعلّمته وانا اخضعه لرياضة روحية . فاستطاع ، في مدة ثلاثة ايام ان يتحرر من مغريات عالم البشر . وبعد ان توصلت الى هذه النتيجة واصلت السهر عليه . فتمكن ، في مدة تسعة ايام ، ان يتحرر من مفهوم وجوده الخاص . وبعد ان تخلّص ، بهذا الشكل ، من مفهوم وجوده الخاص ، « فاز بالرؤيا في النور الصباحي . » وعندما حصل على « الرؤيا في النور الصباحي » اضحى قادراً على رؤية ذاته المنفردة . وعندما اصبح قادراً على رؤية ذاته المنفردة اختفى ، بالنسبة له ، مفهوم الماضي والحاضر . وعندما فقد هذا المفهوم استطاع ان يصل الى الحالة التي لا يكون المرء فيها لا ميتاً ولا حياً . »

(Tchouang-tseu, 6).

١٠ ـ زمّج الماء

كان يعيش على احد شواطئ البحر شاب يحب زمّج الماء كثيراً . وكان ينطلق في كل صباح الى الشاطئ ليلعب معها ؛ وكانت الطيور تقترب منه بالمئات غير خائفة او وجلة . وفي ذات يوم قال له والده : « قيل لي بان زمّج الماء تلعب معك وان صداقة قويـــة

تربطك بها . فهلا التقطت بعض هذه الطيور وحملتها اليّ لألعب ، انا ايضاً ، معها » .

وفي الغد انطلق الفتى الى شاطئ البحر ، واخذت الطيور الزمّج تتمايل في الجو فوق رأسه دون ان يقع واحد منها ليلعب معه[1] .

(Lie-tseu, 2).

---

(١) مرّ زمن كانت الكائنات البشرية والحيوانية تعيش خلاله سوية مؤلفة عائلة واحدة تتحدث بنفس اللغة . وعندما قام « ارباب المدنية » بوضع السدود المصطنعة المنبثقة من الاتفاقات الاجتماعية فقد الناس براءتهم الاولى ، وفقدت الحيوانات ثقتها بهم وخافت منهم فابتعدت عنهم . ولم يحتفظ بصداقة هذه الحيوانات سوى عدد قليل هم الهمجيون ما زالوا يفهمون لغة الحيوان .

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

انجزت المطبعة الكاثوليكية في بيروت
طبع هذا الكتاب في الحادي عشر
من شهر أيار سنة ١٩٧٠

٧٠/٥/١١-٢-٩١١٨



التوزيع : المكتبة الشرقية - ساحة النجمة
ص.ب: ١٩٨٦ - بيروت، لبنان